لماذا نصـــــدر المجلة

في الشرق كنوز لا يغنيها الإنفاق، من أدب أو علم عربي وفارسي وهندي وغيرها، جار عليها الزمان فدفن بعضها، فهي في حاجة إلى أيد عاملة، وعقول راجحة، ونفوس قوية، تتبع الخطط المحكمة للعثور عليها، واستخراجها من مكامنها، حتى تكون ثروة للدارسين، ومتاعا للمثقفين، وزينة للناظرين. وأصدأ بعضها حتى خيل للرائي أنها نحاس وهي ذهب، أو زجاج وهي در، فهي تنتظر من يجلوها، ويزيل عنها ما غشيها، حتى ترد إليها قيمتها، وتظهر حقيقتها. وباعد في بعضها بين زمانه وزماننا، فلم تعطف له نفوسنا، ولم تستعذبه أذواقنا، مع ما له من قيمة كبيرة وقدر عظيم، لا يحتاج إلا إلى تحوير قليل وتعديل بسيط ليوافق ذوق العصر ويلائم العصر.

وفي الغرب علم زاخر وأدب وافر، حالت بيننا وبينه حوائل، فهو مكتوب بلغة غير لغتنا، ومتأثر ببيئة اجتماعية غير بيئتنا، ويعرض لمشاكل قد تختلف في ظواهرها عن مظاهرنا، ومع هذا فنحن مرتبطون بهذا العلم الغربي والأدب الغربي. والمدنية الغربية، طوعا أو كرها، تدفعنا في تيارها دفعا، [illegible] أعمالنا، شعرنا أم لم نشعر، وشئنا أم لم نشأ.

ذلك لأن المدنية الحديثة بمخترعاتها وآلاتها [illegible] من الشعوب، ووثقت الصلات بينها حتى في حالات العداء، وجعلت العالم كله جسما واحدا [illegible] سعادة وشقاء، ويتأثر بما يناله أي جزء آخر من التقدم في علمه وأدبه وحضارته.

أصبح الشرق مرتبطا بالغرب ارتباطا وثيقا في كل مرفق من مرافق الحياة: في الحركات السياسية، في الحركة العلمية والأدبية والفنية، في المادة وفي العقل، في كل شيء.

ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة، ويحكم فيها عن علم، ويسايرها أو يعارضها عن درس، فذلك أصح لحكمه، وأوفق لغرضه، وأليق بإنسانيته.

***

هذه الكنوز الشرقية التي وصفنا، وهذه الثروة الغربية التي ذكرنا، لا يقوم بحقها — بل لا يؤدي عشر معشارها — كل المجلات العربية على اختلاف أنواعها ومناحيها وقيمتها، وهي — إلى الآن — لا تزال محتاجة إلى مئات المجلات بجانبها تعالج هذه الثروات من نواحيها المختلفة، وتكاليفها المتعددة.

وقد أحسسنا المقدرة على أن نشارك في هذا العمل الجليل، وننزل في هذا الميدان الخطير، فقدمنا نعمل مع العاملين، ونحمل عبئنا مع الحاملين، ونجاهد مع المجاهدين، لا نشعر نحو إخواننا «أصحاب المجلات» إلا شعور الفرق المختلفة في الجيش الواحد: هزيمة الفرقة هزيمة الجيش، ونصرة الفرقة نصرة الجيش، والكل يعمل، والكل يتعاون.

لا نريد حربا إلا حرب الآراء، فهي حرب خير من سلم، وصراع خير من مهادنة، وقد علمتنا الأيام أن الرأي

مع أدبائنا المعاصرين

للدكتور طه حسين بك

يقال إن التفكير ظاهرة اجتماعية لا فردية، بمعنى أن الفرد لا يفكر ولا يقدر ولا يروي إلا من حيث هو عضو من أعضاء الجماعة التي يعيش فيها والتي يستحضرها في نفسه استحضاراً ملحوظاً أو غير ملحوظ حين يفكر أو يقدر أو يروي. ولولا أنه يلحظ أمثاله ونظراءه الذين سيظهرون على خواطره، وآرائه لما فكر ولا قدر ولا روى. ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الفرد الذي ينشأ في جزيرة نائية، مقطوعة الصلة بحياة الناس، أو يضطر إليها قبل أن يتم نضجه العقلي فيعيش فيها مفكراً [illegible] ثم يستكشف حقائق الأشياء، وأصول [illegible] هذا الإنسان صورة من صور الأساطير [illegible] وليس من اليسير أن يوجد أو يعرف. ويقال إن مصدر هذا أن التفكير أثر من آثار اللغة ومظهر من مظاهرها، لا سبيل إلى أن يوجد بدونها. لأن الخواطر والآراء مهما تكن لا تستطيع أن تخطر للنفس أو تلائمها أو تستقر فيها إلا إذا اتخذت لها من الألفاظ صوراً وأزياء تمنحها الوجود وتمكنها من الظهور على البال والاستقرار في الضمير والخضوع لما تخضع له الخواطر في نفس المفكر من التواصل والتقاطع، ومن التقارب والتباعد، ومن الائتلاف والافتراق.

يقال هذا ويقال أكثر من هذا. ولست أدري — وما يعنيني أن أدري — أحق هذا أم باطل، وخطأ هذا أم صواب! ولكن الشيء الذي يظهر أنه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدال، هو أن الإنتاج الأدبي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن يكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر الأدبي أو تقرؤه، [illegible] راضية عنه أو ساخطة عليه، معجبة به أو زاهدة [illegible] أن يوجد الفرد الذي يفكر لنفسه [illegible] الأشياء، وأصول التفكير والنطق، [illegible] أن يوجد الفرد الذي يصور خواطره وآراءه في الألفاظ التي تنطق أو تكتب، وتسمع أو تقرأ، وهو لا يريد بهذا التصوير إلا نفسه، ولا يوجه هذا التعبير

لا تنجلي عنه إلا بعد أن يحترق في البوتقة. أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعة في ذاتها لا في آرائها، فسخافة نربأ بأنفسنا عنها، وصغار في جانب الغرض الأسمى الذي نرمي إليه.

ولا نريد مالاً فالمجلة العربية — مهما راجت — لا تنيل ثروة ولا تكسب غنى، فكيف إذا كانت لجماعة كبيرة تنفق عليها من سخاء، وتسمو إلى الجد، ولا تنزل إلى التجارة؟

ولجنة التأليف بحمد الله غنية بأعضائها، غنية بتخصصها، ففيها العالم من كل صنف، وفيها الأديب من كل نوع، وفيها الفنان في كل فن، حصلوا كثيراً من العلم والأدب، ورأوا من واجبهم أن يشركوا في علمهم وأدبهم أكبر عدد ممكن في مختلف الأقطار، فكانت «مجلة الثقافة» كما أنها قوية بانضمام أقوى الأدباء، والعلماء حولها يغذونها بثمار عقولهم ونتائج تفكيرهم، وخير ما تجري به أقلامهم.

فهي تتقدم للعالم الشرقي مؤمنة بفكرتها — بنفسها وبأصدقائها — شاعرة بتبعتها، مقدرة لواجبها، والثقة بقرائها، وإلى الأمام والله يوفقنا؟

احمد أمين

لا إليها. وقد يخيل إلى الأديب ذي الشخصية القوية الممتازة التي يعلو في الامتياز حتى يشذ عن معاصريه، أنه لا يكتب للناس ولا يحفل لهم، ولأنه واثق أو كالواثق بأن الناس لن يفهموا عنه ولن يسمعوا له، فهو إنما يكتب ليرضي نفسه بإظهار ما يكتب وإعلان ما يسر. ولكن هذا الأديب إن وجد — وما أكثر ما يوجد — إنما يخدع نفسه عن حقيقة الأمر، فلولا أنه يريد أن يظهر الناس على ما يفكر ويقدر في يوم من الأيام لما صور تفكيره وتقديره في الألفاظ والعبارات، ولما أودعه الصحف وأسره إلى الأوراق.

وأغرب من هذا أن الأديب الممتاز قد لا يكتفي بتصوير خواطره وآرائه في الألفاظ والعبارات وإيداعها الصحف والأوراق، ولكنه يرسلها إلى المطبعة، فإذا خرجت من المطبعة نسخاً كثيرة فرقها في المكتبات لتشيعها في الناس، ولعله أن يشارك في إرسالها إلى الصحف [illegible] إلى النقاد ليقرءوها ولينقدوها وليحكموا [illegible] الناس ما يكون لهم فيها من رأي، ولعله أن يغضب إذا لم تجد خواطره وآراؤه صدى فيما تكتبه الصحف، وفيما يتحدث به الناس. وهو مع ذلك يؤكد لنفسه — وللناس — أنه لم يقصد بما كتب وما أذاع إلى الجمهور، وإنما جاشت في نفسه خواطر فلم ير من إظهارها بداً، وخطرت له آراء فلم يجد عن إذاعتها منصرفا.

وأغرب من هذا كله أن الأديب قد يجد على النقاد أن أهملوا كتابه أو أعرضوا عنه، وقد يتهمهم بالحسد ويصفهم بالغيرة، وقد يجد على هذا الناقد أو ذاك من أصدقائه لأنه لم ينوه بكتابه في الصحف، ولم يختصه بفصل أو بقطعة من فصل من هذه الفصول التي يذيعها في كل أسبوع.

كل ذلك وهو لم يكتب للناس وإنما كتب لنفسه، ولم يفكر للناس وإنما فكر لنفسه، ولا يخطر للأديب أنه إذا أراد إرضاء نفسه فليس في حاجة إلى الكتابة، وليس في حاجة إلى أن يتحدث إلى الناس، لأنه في هذا المعنى أو ذاك ووقوفه عند هذا الرأي أو ذاك، إنما حسبه أن يفكر فيما يشاء وكيف يشاء، ليرضى إن أراد الرضى وليسخط إن أراد السخط، وليذوق كل ما يعقبه التفكير والشعور والحس من اللذات والآلام.

فهذا خداع من الأديب لنفسه حيناً وللناس أحياناً. والحق الذي لا شك فيه أن الأديب أجدر الناس بأن يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم، فهو لا يعيش إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس. منهم يستمد خواطره وآراءه، وإليهم يوجه خواطره وآراءه. يحتاج إلى نمو حسه وشعوره، وعقله بالظواهر والحوادث والأحداث، ومنهم لا أحسب أنهم يستثيرون ما يقدم إليهم [illegible]. وهو مختنق إن عاش في بيئة لا تغذو الحس والشعور والعقل، وهو مختنق إن عاش في بيئة لا تستمتع [illegible] تستمتع بما يقدم إليها من ثمرات [illegible] الأديب وقرائه أو قل بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك — كما يقول أصحاب الاقتصاد — شيء من الدولة والصد وشيء من الدل والتيه، يتيح للأديب أن يغضب حين لا يكون للغضب موضع، وأن يرضى حين لا تدعو البواعث إلى الرضى، ويتيح للجمهور أن يشتط في الطلب، وأن يلح في التجني، وأن يقصر حين يحسن الإنابة، وأن يمعن حين يحسن الإمهال. وأمور الانتاج والاستهلاك في الأدب جارية على هذا منذ أقدم العصور، ويظهر أنها ستجري على هذا ما دام في الناس أدباء ينتجون وقراء يستهلكون.

هذا الشاعر، أو هذا الكاتب ساخط على الجمهور، أو متنكر له، أو متبرم به، يوسعه لوماً وتأنيباً، ويلح عليه بالتوبيخ والتقريع، ويتمنى أن تنقطع بينه وبينه الصلة، ويود لو تقطعت بينه وبينه الأسباب. والجمهور مع ذلك راض عنه، رفيق به، متحبب إليه، يرى فيه وجه

إليه من اللوم والتأنيب نصحاً وإرشاداً ، ويجد فيما يسوق إليه من التوبيخ والتقريع لذة ومتاعاً ، ويلقى سخطه العنيف بالابتسام الحلو الرقيق ! وهذا الشاعر أو الكاتب يتملق الجمهور ويترضاه ، ويسرف في التلطف له والتقرب إلى قلبه ، ولكن الجمهور لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، ولا يقف عند ما يهدي إليه من هذه الأزهار النضرة التي تملق أحب الناس إليه وآثرها عنده.

ومن هنا يكون بين الأدباء من يلائم عصره ومن لا يلائمه ، ومن يفهم في عصره ومن لا يفهم إلا بعد عصره بقرون . ومن هنا يكون بين الأدباء من يتاح له المجد السريع ، ويكون منهم من يتاح له المجد البطيء . ومن هنا يكون بين الأدباء من يقصد المجد فيفوته ، ويكون منهم من يقصد الإخفاق فيه أمره ونهيه ، ويكون منهم من يتاح له القصد في ذلك ، فلا يعجزه الفوز ، ولا يرتفع إليه الإخفاق ، وإنما يسلك [illegible] فيلتمس اللذة ومتعته في فنه وفي آن [illegible] لمتعته في رضى الناس عنه وإعجابهم به [illegible].

والمهم أن الأديب مهما يكن أمره ، كان أمره ، لا يستطيع أن ينفرد ، ولا أن يستقل بحياته الأدبية ، ولا يستقيم له أمر إلا إذا اتصلت الصلة بينه وبين الناس ، فكان صدى لخواطرهم ، وكانوا صدى لآثاره ، وكان مرآة لما يجدون من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، وكانوا مرآة لما يذيع فيهم من رأي وخطر ، وما يقدمه لهم من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها.

وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة ، وإلى أن يراها قوية متينة ، متصلة بينه وبينهم كما يتردد الرسول بين المحبين . ذلك يدفعه إلى العمل ، ويشحذه للإنتاج ، ويملأ نفسه بالأمل ، ويثير فيها الخواطر والآراء ، ويشيع في لغته القوة والحدة والنشاط . ويلائم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسمعونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس . ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذي يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ، ويحققها على أتم وجه وأقواه وأنفعه ، لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يتحببان حيناً ويتقاطعان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور . وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذي يبلغ إلى الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها ويرغبهم فيها ، أو يصرفهم عنها ويزهدهم فيها . والذي يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها ، أو نفورهم بالقياس إليها . ومعنى ذلك أنه يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه . ومعناه أن يشرح للأديب ما يريد إقبال الناس عليه من كلام استقبلوه ، ويكشف إعراضهم عنه إلى [illegible] ، فهو الرسول الحكيم الذي نصح القدماء [illegible] . هو حكيم بالقياس إلى الجمهور ، [illegible] يحسن أن يقرءوا ، وعلى ما يحسن [illegible] . وهو رسول حكيم بالقياس إلى الأديب ، لأنه يبين للأديب مواقع فنه من الناس ، ويدله على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق إليه ليزيد منه ، ويدله على التقصير الفني ليتقيه ، وعلى الإجادة الفنية ليحتفظ بها فيما يستأنف من الآثار.

ولكن هذا النقد الأدبي لا ينشئ نفسه ولا يقوم بالرسالة في الهواء بين الأديب وقرائه ، وإنما ينشئه إنسان أديب له في أكثر الأحيان ما للأديب المنتج من الخصال المحمودة والمذمومة ، يخادع نفسه ويخادع الناس في كثير من الأحيان عن فنه ، وعما يقصد إليه بهذا الفن . فما أكثر ما يخيل الناقد إلى نفسه ! وما أكثر ما يخيل إلى الناس أنه لا ينقد هذا الكتاب أو ذاك إلا لنفسه لا رغبة في النقد وإيثاراً له ، وإرضاء لميله الطبيعي إلى أن تستقر أمور الصواب والخطأ ، وأمور الإحسان والإساءة الفنية في نصابها ! وهو في حقيقة الأمر إنما ينقد لنفسه

والناس كما يمتع الأديب المنشئ لنفسه وللناس ، يجد اللذة والمتاع في الإنشاء نفسه ، لأنه تخلص من عبء ثقيل ، ولأنه تأثير في غيره من الناس وتسلط عليهم ، ولأنه فعل إعجاب إذا أردت الإيجاز ، كما يجد اللذة والمتاع في تأثر الناس به وفهمهم عنه وإكبارهم له وإعجابهم بما يدعو إليه . وكما يجد اللذة والمتاع أحياناً في مقاومة الناس له وازورارهم عنه ، وتشددهم في الإنكار عليه ، وما يستتبعه ذلك من أخذ ورد ، ومن جذب ودفع ، ومن جدال وحوار ومن خصام ومراء أيضاً .

فى الناقد الخليق بهذا الوصف مزايا الأديب الخليق بهذا الوصف وعيوبه ، لا يكادان يفترقان إلا في أن أحدهما — وهو الأديب — يتخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لإنشائه ، في حين يتخذ أحدهما الآخر وهو الناقد صور الأشياء كما أخرجها له الأديب مادة للنقد وموضوعاً . ومع ذلك فليس من الحتم أن الناقد لا [illegible] طبائع الأشياء وحقائقها ، وربما كان مضطراً [illegible] فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذي عالجه الأديب ليبين أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون الأديب قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجادة أو قد تورط فيه من إساءة .

فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معاني الكلمة ، والنقد آخر الأمر أدب بأصح معاني الكلمة أيضاً ، وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ . فالناقد مرآة تتراءى للأديب ، والقراء مرآة الناقد كما أنهم مرآة للأديب أيضاً . ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جلية كأحسن ما يكون الصفاء والوضوح والجلاء ، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ ، وكما تعكس صورة الناقد . فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث : نفسية المنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المتأثر ، ونفسية الناقد التي تقضي بينهما بالعدل وتزن أمرهما بالقسطاس .

وواضح جداً أني إنما أعظم من أمر النقد وأكبر من شأنه وأرفعه إلى هذه السماء الممتازة التي تظل الأدباء والقراء جميعاً ، لأني أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كما يقال — فرصة إصدار « الثقافة » — لأخرج منها إلى هذه السماء الممتازة ، ولأشرف منها على الأدباء والقراء جميعاً في فصول من النقد أتناول بها تأثير أولئك وتأثر هؤلاء ، وما ينبغي لي أن أقصر في ذات نفسي ولا أن أضعها حيث يجب أن توضع من الأدباء والقراء . فإن هذا التواضع لم يصبح ملائماً للشيخ في هذه الأيام ، وإنما ينبغي لي أن أستطيل وأن أتكلف الاستطالة ، وأن أرتفع وأتكلف الارتفاع ، لأني [illegible] من الأدباء والقراء سلماً ولا موادعاً ، وإنما أريد أن أبغي عليهم عاصفاً وملحاً في الخصام ، والله [illegible] في الخصام أو إيثاراً له أو رغبة في [illegible] . وإنما أفعل ذلك عمداً لإيقاظ قوم نيام قد طال عليهم النوم حتى كاد يشبه الموت ، وهؤلاء القوم النيام هم الأدباء والقراء . أولئك يتحرجون وهم نيام ، قد أمنوا النقد أو استيأسوا منه ، فهم يتحرجون في فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، لأنهم قد اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضى أو يبين عن السخط . وهؤلاء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن يقتلوا الوقت بين حين وحين بقراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لهذا الأديب أو ذاك ، لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأي من الآراء أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإنما دعتهم العادة إلى القراءة ، دعتهم العادة ودعاهم الفراغ الثقيل أيضاً . فماذا تريد أن يصنع الرجل المثقف حين تنبئه الصحف بأن فلاناً قد أخرج كتاباً ؟ وماذا تريد أن يصنع حين يتحدث إليه الناس عن هذا الكتاب ويسألونه عن رأيه فيه ؟ لا بد من أن يلم ب

إليه بسيرة قصيرة، ترفع عنه اللوم وتبرئه من مشقة الجهل وتتيح له أن يقول إذا سئل: نعم لقد رأيت هذا الكتاب ونظرت فيه، ولست أرى به بأساً، أو أنا أرى به بعض البأس. والناس لا ينتظرون منه أكثر من هذا، وهو لا ينتظر منهم إذا سألهم أكثر من هذا أيضاً. وكذلك ينتج الأدباء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالإنتاج، ويقرأ القراء وهم نيام فكأنهم يحلمون بالقراءة!

ويتصل الحياة الأدبية في مصر فتور مهلك أو مدنٍ من الهلاك. ولا بد من أن يتجاب هذا الفتور، ولا بد من أن يزول هذا النوم، ولا بد من أن ينتج الأدباء ويقرأ القراء وهم أيقاظ. والنقد وحده كفيل بإيقاظهم. ولكنه لن يبلغ أسماعهم فيما يظهر إلا إذا رفع صوته رفعاً عنيفاً وهز النائمين هزاً قوياً، واضطرهم إلى هذه الحركة المضطربة التي يضطر إليها النائم المغرق في النوم حين يسمع الصوت الرفيع أو الهز العنيف. وما من [illegible] يستيقظ وجلاً مضطرباً قلقاً بموقظه [illegible] مستعد والحمد لله لأتلقى مقت النائمين الذين أريد إيقاظهم، بل يظهر أني مستعد لأكثر من هذا، فإن النائم إذا أفاق وثاب إليه رشده وعادت إليه نفسه كف عن المقت واللوم في أكثر الأحيان ورضي عن موقظه وحمد له عمله.

ولكني مستعد فيما يظهر لتقبل اللوم المستمر والمقت المتصل، لأني أرى في تلك الهبوة لهذه الحياة الأدبية التي انتهت حاجتها في هذه الأيام إلى القوة والنشاط، ولأني أخشى إذا أيقظت النائمين بالعنف ثم عنفت في أمرهم إلى الهدوء والدعة أن يعودوا إلى الراحة وأن يستمرئوا النوم. وما أدري ملقفاً الحق الذي يلح علي ويجدني على الآثام ولا آثم، وقد حاولت أن أستنقذ منه نفسي وأن أغريه بغيري من النقاد فلم أبلغ مما أردت شيئاً!

وهذه كتب كثيرة قد ظهرت منذ أعوام لطائفة من أدبائنا الشيوخ والشباب، قد جمعها لي هذا الحق جمعاً ووضعها بين يدي وضعاً، وهو يلح علي في أن أقرأها، وفي أن أنقدها، وفي أن أذيع رأيي فيها وحكمي عليها، وفي أن أتعرض من أجل ذلك للوم اللائمين وسخط الساخطين! والغريب أن هذا الحق الماكر أمين نصيح لا يريد أن يخدعني عن نفسي، ولا عن الناس! فهو يزعم لي أن الأدباء سيلقونني بمثل ما أقدمهم به أو بشر مما أقدمهم به. فقد ظهرت لي كتب وستظهر لي كتب. وأي كتاب يستطيع أن يظفر بالرضى كله، وأي كتاب من كتب الناس لا يأتيه النقد من هذا الوجه أو ذاك. وإذن فسينقد الناس كتبي كما أنقد كتبهم، وسيكيلون الناس بالصاع صاعين، وبالباع باعين، كما قال لي الأستاذ العقاد في بعض رسائله منذ أكثر من عشر سنين. وإذن فهذا الحق يصور لي نتيجة هذا النشاط الذي أسألك على أنها رد ونقد وخصومة وحكومة، واضطراب في الجدل [illegible] هذه الحياة الهيئة الخصبة، وبين [illegible] حياة أخرى هادئة وادعة، ولكنها عقيمة مجدبة، لا نقد فيها ولا رد، ولا خصومة فيها ولا حكومة، ولا جدال فيها ولا حوار، وإنما هي حياة الراحة والعافية والجمود. وواضح جداً أني أختار الأولى، ومتى رأى الناس أني أختار اليسير مما يعرض لي من الأمور؟

أمر الأدباء وأمري إلى الله، وإذن فلنستأنف حياة النقد والرد التي عرفناها في بعض أوقاتنا، فذقنا منها هذه اللذة الأولى، وهذه الحلاوة المرة التي لا يستقيم بدونها مزاج الأدب!

ولكن أول ما نبدأ به أنفسنا من ذلك كتاب صديقنا «أحمد أمين» زعيم لجنة التأليف والترجمة والنشر وزعيم مجلة «الثقافة». فإن أحب شيء إلي أن أبدأ بمداعبة أقرب الأدباء إلي، وأدناهم مني وآثرهم عندي.

طه حسين

في التاريخ السياسي المعاصر :

الصراع بين الدكتاتورية والديموقراطية

لمحرر الثقافة السياسي

منذ أعوام ثلاثة يشهد العالم أعظم صراع عرفه التاريخ بين نظامين سياسيين واجتماعيين هما : الديموقراطية والدكتاتورية . وقد بلغ هذا الصراع الهائل ذروته في شهر سبتمبر الماضي حينما تفاقمت المسألة التشيكوسلوفاكية وأصرت ألمانيا على مطالبها في ضم منطقة السوديت الألمانية التي أدمجت في تشيكوسلوفاكيا منذ سنة ١٩١٩ بمقتضى معاهدة الصلح . وشعر العالم كله في [illegible] بخطر أعظم أزمة دولية عرفها منذ [illegible] وأنه كان حقا على وشك الانفجار والانحدار إلى هاوية حرب عالمية أخرى .

ذلك أنه في الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٦ سبتمبر ألقى سيد ألمانيا وزعيمها خطبته الشهيرة التي ارتعدت لها فرائص جميع الذين يروعهم خطر الحرب ، وأنذر فيها تشيكوسلوفاكيا والدول الديموقراطية والعالم أجمع ، بأن صبره قد بلغ النهاية ، وأنه إذا لم تذعن تشيكوسلوفاكيا لإرادته وتنزل لألمانيا عن منطقة السوديت حسبما حددت وبينت في البلاغ الألماني النهائي ، وذلك في يوم أول أكتوبر ، فإن ألمانيا تعرف كيف تأخذ حقها بنفسها في ذلك اليوم ذاته ، ولن يثنيها عن عزمها شيء في هذا العالم ، وعلى الدول الديموقراطية أن تحتمل جميع التبعات التي تترتب على ذلك الانفجار .

فهل كان الهر هتلر يعني ما يقول وقتئذ ؟ وهل كان يعتزم حقا أن يخوض غمار الحرب إذا لم تحقق مطالبه ؟ هذا ما لا يزال سرا من أسرار التاريخ . بيد أننا وقد كنا وقتئذ في ألمانيا ، مركز الاضطرام ، ومسرح الحوادث ، نستطيع أن نقول إن كل من في ألمانيا في تلك الآونة كان يشعر بأن الحرب على الأبواب . فمنذ منتصف شهر سبتمبر كانت المظاهرات الحماسية والاستعراضات العسكرية الكبرى تخترق شوارع العواصم الألمانية باستمرار ، والدعوة إلى الخدمة العسكرية تتوالى على مختلف الطبقات ، ويتساءل الناس باستمرار : « هل تقع الحرب ؟ » وقد ساد الاضطراب والجزع في جميع مراكز الأعمال ، وهرع معظم الأجانب إلى مغادرة ألمانيا . وكانت المناورات الجوية الليلية تجرى باستمرار ، حتى إننا وفينا قضينا ثلاثة أيام متوالية في الظلام الدامس منذ ١٩ إلى ٢٢ سبتمبر . وكانت شوارع العاصمة المنيرة وأحياؤها تغمر في هذه الليالي الرهيبة [illegible] ، لا نرى الناس والأشياء إلا أشباحا [illegible] إن هذا الظلام لم يكن إلا ستارا [illegible] وكانت وافرة من الجحافل إلى حدود تشيكوسلوفاكيا .

وقطع الناس في اليومين التاليين لإلقاء الزعيم (هتلر) خطبته ساعات عصيبة حقا ، فقد كان شبح الحرب يبدو قويا في الأفق . وقد ساد الوجوم كل مكان وكل محيا ، واستشعر معظم الناس أن الكارثة توشك تنقض على العالم . ولكن حدث في مساء الأربعاء ٢٨ سبتمبر أن أذيع بالراديو في كل مكان ، أن مؤتمرا سيعقد في صباح الغد في ميونيخ من رؤساء الدول الأربع العظمى ، ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وانكلترا ، وأن الآمال معقودة بالوصول إلى حل يصون السلام ويقي العالم شر الخطر الرهيب . ونزل النبأ على الناس كالغيث ، ودوت صيحات الفرح والابتهاج في كل مكان .

وكان أن عقد مؤتمر ميونيخ في اليوم التالي من رؤساء الدول الأربع في صباح يوم الخميس . وكان أن سفت

الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان انكلترا وفرنسا ، بجميع مطالب ألمانيا في ضم منطقة السوديت ، مما يعرفه القارئ أجمع وما لا حاجة بنا إلى تفصيله .

* * *

وقيل غداة مؤتمر ميونيخ إن السلام قد أنقذ ، وإن الضحية التي أرغمت تشيكوسلوفاكيا على أدائها بالتنازل عن بعض أراضيها لم تكن شيئاً مذكوراً إلى جانب أهوال حرب مروعة كانت وشيكة الضرام ، وإن عهداً جديداً من التفاهم والوئام سيبدأ بين الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية .

ولكن أولئك الذين يقدرون نسبية الأشياء [illegible] ، ويرون الأمور بعين الحقيقة ، رأوا يومئذ في مؤتمر ميونيخ رأياً آخر ، هو أن الدكتاتورية أحرزت فيه ظفراً عظيماً لم تكن تحلم به ، وأصيبت الديمقراطية بهزيمة [illegible] حقة سيكون لها أبعد الآثار .

وفي سير الحوادث ما يدل على أن ميونيخ كان يوماً عصيباً على الديمقراطية ، وكان يوماً حاسماً في سير ذلك الصراع الهائل الذي يضطرم بينها وبين الدكتاتورية ، ففيه لم تغنم ألمانيا مناطق السوديت من تشيكوسلوفاكيا فقط ، بل غنمت سيادة أوربا الوسطى وسيادة القارة كلها ، وسحقت حصن الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا — وقد كانت في الواقع حصناً للديمقراطية في أوربا الوسطى — وقضت على التحالف الصغير ، وعلى جميع مظاهر التوازن الدولي الذي ألفت الدول الغربية عشرين عاماً في إقامته في أوربا الوسطى .

والآن تبدو ألمانيا سيدة القارة الأوربية ، وتعمل بنشاط عظيم لدفع نفوذها وسيادتها نحو الجنوب والشرق ، وقد أصبحت دول أوربا الوسطى : تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا والدول البلقانية حتى تركيا في متناول نفوذها ، وصار يتعذر على هذه الدول أن تتجه إلى محالفة دولة أخرى أو إلى تعضيد أي نفوذ آخر .

كان يوم ميونيخ إذن يوم فصل رجحت فيه كفة الدكتاتورية ، وكان بداية مرحلة من الظفر ، لم يك شك في رأي الساسيين المطلعين أن أشواطاً ستليها ، ما دامت الدول الديمقراطية سائرة على سياسة التسليم والإذعان في كل ضربة تنزلها بها الدول الدكتاتورية .

وقد بلغت الدكتاتورية هذه المرحلة من الظفر في فترة وجيزة ترجع إلى ثلاثة أعوام فقط . ففي ربيع سنة ١٩٣٦ حققت إيطاليا مشروعها الحربي في غزو الحبشة وضمها إلى أملاكها أمام سمع العالم وبصره ، ولم تلق أية معارضة أو احتجاج ، وفي الوقت نفسه احتلت ألمانيا منطقة « الرين المجردة » التي فرضت عليها تقتضى معاهدة فرساي ، وأعلنت بطلان جميع النصوص العسكرية التي تضمنتها هذه المعاهدة [illegible] عن يدها من إنشاء قواتها الدفاعية ، [illegible] التي [illegible] هذه الخطوة سلامتها أشد الارتياع ، لأن انكلترا لم تر يومئذ وجهاً للاعتراض على استرداد ألمانيا لحريتها في شؤون الدفاع القومي ، ولم تستطع فرنسا من جانبها أن تقوم بأي إجراء منفرد . وكانت السياستان البريطانية والفرنسية يومئذ على خلاف من جراء المسألة الحبشية ، ولم تخف هذه الحقيقة على ألمانيا ؛ وكما حذت فرنسا انكلترا في المسألة الحبشية ، فكذلك رأت انكلترا أن تحذو حذو فرنسا أمام ألمانيا في المسألة العسكرية .

على أن الدول الديمقراطية ارتكبت يومئذ أعظم أخطائها ، ولم تدرك أن هذا الضعف من جانبها ، سيؤدي في فترة وجيزة إلى قلب التوازن الدولي بصورة لم يسبق حدوثها .

ذلك أن ألمانيا انتهت ظفرها في الرين ، وانتهت إيطاليا ظفرها في الحبشة ، بتدبير الحرب الأهلية الإسبانية

وتسليح فرانكو ، وبعد مفاوضات عسكرية عظيمة ؛ وكان أن اضطرمت نار الحرب الأهلية الإسبانية في يوليو من هذا العام ، وما زالت تضطرم إلى يومنا . وكان هدف الدولتين ظاهراً وهو إقامة حكومة دكتاتورية حليفة في إسبانيا ، تعتمد على معاونتهما ؛ وتستطيع عند الحاجة أن تناوئ انكلترا وفرنسا ؛ وأن تغدو خطراً على مواصلاتهما في البحر الأبيض المتوسط ؛ ومع أن فرانكو لم يحرز النصر النهائي بعد ، فإن الحالة في إسبانيا تثير اليوم أعظم المخاوف في انكلترا وفرنسا .

وفي خريف سنة ١٩٣٧ ، عقدت ألمانيا وإيطاليا محالفتهما الشهيرة بمحور برلين رومه ؛ ومن ذلك التاريخ تنقسم أوربا إلى معسكرين واضحين : معسكر الدكتاتورية وقوامه ألمانيا وإيطاليا ؛ ومعسكر الديمقراطية وقوامه فرنسا وانكلترا ؛ وغدا الصراع بين المعسكرين [illegible] عنيفة . هذا ومن جهة أخرى فقد استطاعت سياسة «المحور» أن تستدرج اليابان إلى عقد ميثاق ثلاثي غرضه الظاهر مكافحة الشيوعية ، وغايته الحقيقية تعاون الدول الثلاث على تحقيق المآرب الاستعمارية . فألمانيا وإيطاليا تعضدان توغل اليابان في الصين ، وهذا التوغل خطر واضح على المصالح الانكليزية والفرنسية في الشرق الأقصى . واليابان تستطيع في الوقت نفسه أن تشغل جارتها الآسيوية الكبيرة «روسيا» التي تقف في شرق أوربا إلى جانب الدول الديمقراطية .

هذا وبينما تتفاقم المسألة الإسبانية في أوائل سنة ١٩٣٨ ويبدو ظفر الجنرال فرانكو قريباً بسحق الجمهورية الإسبانية وإقامة الحكم الدكتاتوري في إسبانيا مفتاح البحر الأبيض من الغرب ، إذا بحوادث أوربا الوسطى تتطور بسرعة مدهشة ، وإذا ألمانيا تنقض في يومي ١٢ و ١٣ مارس على النمسا فتحتلها ، وتعلن ضمها إليها أمام أوربا قبل أن تفيق من دهشتها وذهولها ، وإذا موسوليني الذي سبق أن حشد جيوشه فيما وراء ممر «برنر» في سنة ١٩٣٤ ، حينما حاول النازي في النمسا الاستيلاء على الحكم ، يسارع فيقر عمل هتلر في ضم النمسا ويؤيده ؛ والعالم كله يتساءل : كيف تسامح إيطاليا الفاشستية إلى هذا الحد في حدوث ما اعتبرته قبل بضعة أعوام خطراً على سلامتها وتأهبت لمقاومته بقوة السلاح ؟

وكان استيلاء ألمانيا على النمسا نذيراً بانهيار التوازن الدولي في أوربا الوسطى ؛ وانهيار جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي أنشأها الحلفاء الظافرون في معاهدة الصلح لتكون مخفراً ومعقلاً للديمقراطية في أوربا الوسطى ؛ ثم تمض أشهر قلائل حتى تثار مشكلة السوديت الألمان ، وتمضي ألمانيا في إثارتها إلى أبعد ما وسعت ؛ وكان مؤتمر ميونيخ وتسليم ألمانيا بمناطق السوديت وانهيار تشيكوسلوفاكيا كما [illegible] ، وظهور ألمانيا الكبرى بصورة من القوة والسلطان في الشئون الأوربية لم يشهدها التاريخ .

* * *

كان مؤتمر ميونيخ خاتمة للمأساة التشيكوسلوفاكية ، ولكنه كان فاتحة لمأساة أعظم وأخطر ، هي مأساة القارة الأوربية بأسرها .

فأوربا اليوم تجوز مرحلة من الاضطراب الفكري لم تعرفها منذ الحرب الكبرى ، والأفق السياسي المكفهر لا يكاد يصفو يوماً واحداً ، والأزمات الدولية تتوالى سريعة ، والعالم كله يرقب هذا الغموض بجزع ويحاول أن يعرف المصير الذي ينحدر إليه .

لم يبق خفياً أن مثار الاضطراب الدولي الحاضر كله هو تلك المعركة الهائلة التي تضطرم اليوم بين الدكتاتورية والديمقراطية ، وهي معركة تخرج اليوم من صفتها المحلية

وتغدو معركة عالمية ، تتخطى أوربا إلى أمريكا وآسيا ، وتشغل الرأى العام فى جميع الأمم المتمدنة .

وأظهر خواص هذا الصراع اليوم هو مظاهر القوة التى تبدو بها الدول الدكتاتورية ، فهى ما زالت تخرج خلال الفترة الأخيرة من نصر إلى نصر ، وتقدم فى تحقيق برامجها ومشاريعها بثبات وجرأة ؛ بينما الدول الديمقراطية تخرج من هزيمة إلى أخرى ، وتنتهى فى كل أزمة بالإذعان والتسليم ، وتتمسك بنظرياتها وتقاليدها السياسية القديمة ؛ هذا بينما يلجأ خصومها إلى الوسائل العملية الناجعة ، ومن ورائهم قوات عظيمة مسلحة استطاعوا إنشاءها بجهود جبارة وما زالوا يستزيدون منها ، وشعارهم دائماً القول للقوة ، وأن عصبة الأمم ، ونظرية السلامة الإجماعية ، ومشاريع نزع السلاح وتحديده ، ليست إلا أحلام عقيمة ؛ وأن العهود والمواثيق الدولية لا قيمة لها متى كانت عثرة فى سبيل الأماني والغايات القومية .

وبينما نرى الحكومات فى الدول الدكتاتورية راسخة قائمة على أهبة الحكم بقوة واستمرار ، لا يعارضها فى الداخل أو يقف فى سبيلها معارض ، إذا بالدول الديمقراطية تقوم عليها حكومات برلمانية سريعة التقلب ، وإذا بها تتعثر فى الكفاح والمقاومة ، لأن نظمها وتقاليدها البرلمانية وما تلقى أحياناً من المعارضة وتجاذب الآراء والقوى ، يحول دون سرعة الإقدام والبت فى المواقف والأزمات الخطيرة .

وقد ظهر فى أثناء الأزمة الدولية الأخيرة فى سبتمبر الماضى ، أن ألمانيا وإيطاليا تتفوقان فى الأهبة الحربية الشاملة ، والعدة العسكرية ، على الدول الديمقراطية ، وأنهما استطاعتا أن تقوما فى ذلك الظرف الدقيق بتعبئة عسكرية سريعة اعتمدتا عليها فى تدعيم وجهة نظرهما ، وفى إحراز فوز حاسم فى مؤتمر ميونيخ ، وهما ما زالتا اليوم تواليان العمل السياسى اعتماداً على هذه القوة ، فألمانيا تبسط نفوذها الساحق على أوربا الوسطى ودول البلقان ، وتطالب بمستعمراتها السابقة بقوة ووعيد ، وإيطاليا تطالب بمغانم ومزايا استعمارية جديدة وتغرق فى الوعيد والتحدى .

واليابان من جانبها وهى زميلة الدكتاتورية فى الشرق الأقصى تتوغل فى الصين وتستولى على أراضيها ومواصلاتها تباعاً ، دون أن تستطيع قوة أن تقف فى سبيلها .

فهل معنى ذلك كله أن كفة الدكتاتورية قد رجحت أو أنها سترجح نهائياً ؟ وأن معسكر الديمقراطية سيركن إلى الخضوع والتنازل باستمرار ؟ وأن انكلترا وفرنسا سيقضى عليهما بفقد تفوقهما السياسى القديم ، وتتحولان من الدول الثانوية بعد أن كانتا كلتاهما فى طليعة الدول العظمى ؟

يقول بعض أنصار الدكتاتورية إن الامبراطورية البريطانية سائرة إلى الانحلال ، وإنها تعانى الآن أواخر عهد الأفول ؛ وإن الشعب الفرنسى قد فقد بعض الأوزان الاشتراكية والشيوعية فضائله القديمة ، ويرجحون فرنسا ، وإن المستقبل ينتسم للدكتاتورية ، ...

وهذا تصوير لحقيقة الواقعة ... ثم إن الديمقراطية قد أصابتها فى الأعوام الأخيرة عدة ضربات وهزائم واضحة ، وقد فقدت بلا ريب كل ما جنته من ظفرها فى الحرب الكبرى بتحطيم معاهدة فرساى ؛ وقد ارتكبت عدة أخطاء خطيرة ، وأبدت كثيراً من التردد والضعف فى مختلف الأزمات الدولية ؛ ولكن يلاحظ أولاً أن الديمقراطية قد شعرت بالخطر المحدق بها من جراء تهاونها وتخاذلها ، ونهضت لدرئه بنفس الوسائل التى لجأ إليها خصومها ، أعنى بالتسليحات الضخمة ، والاستعدادات العسكرية العظيمة . وإذا كانت الدول الدكتاتورية قد بلغت فى ذلك مدى عظيماً ، فإنه يلاحظ أنها قد استنفدت فى بلوغه كل طاقتها ومواردها ، وأنها قد ضحت فى سبيله بالاقتصاد القومى ، وأضحت تنوء تحت أعباء ومتاعب اقتصادية هائلة . أما الدول الديمقراطية فإنها ما زالت

تستطيع ، بالاعتماد على مواردها القومية والاستعمارية العظيمة ، أن تمضي في ذلك أشواطاً بعيدة ، وأن هذا التنافس في التسليح سوف ينتهي بعوزها وخورها ؛ وليس أدل على ذلك مما تدعو إليه ألمانيا اليوم من تحديد التسليحات ، وذلك خشية من تخلفها في هذا الطراد الذي لا تقوى عليه مواردها وجهودها ، ومحاولة منها أن تستبق مرحلة التفوق التي بلغتها .

والمعسكر الديمقراطي عدا ذلك أكثر عدداً ، فهو يشمل بريطانيا وفرنسا وروسيا من الدول الأوربية العظمى ، وقد يشمل بعض الدول الثانوية مثل بولونيا ورومانيا وبلجيكا حسبما تدل عليه التطورات الأخيرة . وأهم من ذلك أنه يشمل الولايات المتحدة (أمريكا) وهي اليوم أشد دول العالم خصومة لألمانيا وللمعسكر الدكتاتوري ، وأشدها حماسة في المناداة بمقاومته وتحطيمه .

أما المعسكر الدكتاتوري فهو [illegible] برلين روما . ولكن مما يشك فيه أن [illegible] بين ألمانيا وإيطاليا ما يدل على قوته وتماسكه . وهو قد فقد كثيراً من قوته منذ استولت ألمانيا على النمسا ، وفقدت إيطاليا بذلك كل نفوذها في أوربا الوسطى . هذا فضلاً عن أن الفاشستية تنظر بعين القلق إلى مجاورة ألمانيا الكبرى لحدود إيطاليا الشمالية . أما الميثاق الثلاثي المعقود بينهما وبين اليابان فهو ميثاق خيالي ؛ واليابان لا تفكر إلا في مصالحها في الشرق الأقصى ، ولا تقبل أن تكون ألعوبة في يد الدول الفاشستية تتخذها أداة للتوازن الأوربي ، وهو ما يرمي إليه محور برلين روما .

هذا وقد بلغ الصراع بين المعسكرين اليوم مداه في ميدان السلم ؛ وبلغت الديمقراطية في تساهلها وتنازلها أقصى الحدود ؛ فأي اصطدام جديد بين المعسكرين قد يضرم شرارة الحرب التي رأت الديمقراطية أن تتفادى حتى اليوم مخاطرها بكل الوسائل .

والدكتاتورية ما زالت تؤمن بالاعتماد على تجاربها الناجحة وتحقيق أمانيها بطريق الوعيد والتحدي ، وهو الطريق الذي نجحت في سلوكه حتى اليوم ؛ وليس أدل على ذلك مما وقع أخيراً بين إيطاليا وفرنسا ، حيث هبت في إيطاليا حركة صاخبة شبه رسمية للمطالبة بتونس ونيس وكورسيكا ؛ ولكن هذه المظاهر الصاخبة لم تسفر إلا عن إحداث رد فعل عكسي في فرنسا حيث أبدت فرنسا عزمها بمظاهرات رسمية وشعبية على الدفاع عن كل شبر من الأرض تخفق عليه رايتها . وإيطاليا أعرف الناس أنها لا تستطيع أن تحقق شيئاً من هذه المطالب إلا بحرب هائلة تخسر فيها ؛ ولكنها تتوسل بها كما هو واضح لتحقق في قناة السويس وتونس وجيبوتي مطالب أقل خطورة وأيسر منالا .

ومن جهة أخرى فإنه يلاحظ أن هنالك تحولا في [illegible] السياسة الأوربية لم يعرف حتى اليوم أثره ومداه ، [illegible] الذي عقد أخيراً بين بولونيا وروسيا [illegible] جهة وألمانيا [illegible] ، ومظاهر التقرب بين فرنسا وألمانيا التي انتهت بإصدار التصريح الفرنسي الألماني بعدم الاعتداء ، وما يقال عن محاولة التقرب بين ألمانيا وروسيا ، وما يعتزمه رئيس الوزارة البريطانية من زيارة روما لتوثيق الروابط الإيطالية الإنكليزية ، وربما الإيطالية الفرنسية ؛ كل هذه وقائع وتطورات ستحدث أثرها بلا ريب في موقف الدول في أوربا ، وفي سير الصراع بين الكتلة الدكتاتورية ، والكتلة الديمقراطية .

والخلاصة أن الديمقراطية قد خسرت إلى اليوم في هذا النضال كثيراً من المزايا العسكرية والسياسية ، وقد فقدت كثيراً من هيبتها السياسية ، ومن سيطرتها القديمة في القارة الأوربية ، وعلى سير الحوادث الدولية . ولكن الفرصة ما تزال سانحة أمامها لاسترداد كل شيء ، وقوى شعوبها ، ومواردها التي لا تنضب ، خير كفيل بتفوقها في معركة [illegible] طويلة المدى .

(***)

هنا في كل أسبوع ، تحت مصابيح الأ... أعرض كل حياتي الليلية . حياة ... شتى الألوان . سحابية لا في ... في محترق الحروب ... الكبيرة ... حياة الليل تختلف عن حياة النفس في أعمالها البعيدة عن أقرأ في ساعات السكون ، وفي إصغائه الطويل إلى الخواطر والأفكار التي تمر على الصامت .

***

صدفت نفسي البارحة عن القراءة ، لا أدري ما أصنع . وبلا يدري مددت في حجر مرمى رسالة جاءتني منذ يومين . إنها من فتاة لم تجاوز العشرين تريد الاشتغال بالأدب ، وتسألني في إصرار أن آذن لها بمقابلة كي تبسط لي أمرها وتتلقى فيه رأيي . وتذكرت ما عبر رأسي عندئذ من صور ، إني أعرف المرأة التي تعشق الأدب حياتها . إنها المرأة التي لم تجد رجلاً تمنحه هذه الحياة . ولكنها ما زالت في أول الشباب . وإني لمما أشعر أن الطبيعة قد جردتها من ذلك السحر الذي تسيطر به على قلب الرجل . والمرأة إذا جردت من هذا « الرداء » فليس أمامها إلا أن ترتدي مسوح الرهبان . ولعل في « رهبنة الفكر » قوة جديدة قد تستخدمها المرأة في طرق باب الأمل من جديد . على أي حال لا بأس من مقابلة الفتاة . فضربت لها موعداً تحكيني هذا الصباح . فحضرت . وما كادت عيني تقع عليها حتى انقلب كل شيء في رأسي ، وطاشت الصور في سرعة البرق . فالفتاة التي أمامي جميلة رشيقة أنيقة . إنها من ذلك الطراز الذي يخطر في حلبات السباق في أحسن الأزياء ، لا إنما في الهواء أشبث العطور ، تاركة خلفها في كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات . إنها من ذلك النوع الذي يُرى في القاعات الأولى من المسارح ليالي الافتتاح . فيلقي الهمس والالتفات في صدور ... الخواطر أخرى وقلت في نفسي : « أليس عجيباً ... هذه الفتاة ! » ... ورأت ما بي فبادرت بالتحية ... تجلس حيث أشرت إليها الجلوس : ... الأستاذ أن تصارحني في كل شيء .

فقلت لها كالغاطس في نفسي وعيني ما تزال تفحصها :

— بل أنا الذي أرجو أن تصارحيني بكل شيء ...

فأطرقت قليلاً ، وقد أرخت أهدابها الطف على خدها طويلاً !

— إني يا سيدي ... أحب الأدب .

فقلت على الفور :

— إن الأدب يا سيدتي يتشرف بهذا الحب ...

وتداعى وجهي الابتسامات فقلت :

— لكن ...

— لكن ؟

— ماذا تقصدين بالضبط أيتها الآنسة ...؟ أرجو منك أن تصحي قليلاً ...

فأطرقت مرة أخرى . وكأنها لا تعرف كيف تبدأ

الحديث . ثم رفعت عينيها ، وأخذت تتأمل المكان الذى أنوى فيه . فلم تجد شيئاً باهجاً . فلا زهرة متفتحة ، ولا أثاث أنيق ، ولا حيطان زاهية اللون ، ولا ضوء كثير باهر !

فرأيت كأن صدرها قد ضاق ، وأنها تريد التنفس ، وأن شفتيها القرمزيتين تهتزان ، وأنها تكاد تصيح فى الزهو منها : « أهذا بيت الأديب ؟ » .

ولحظتها تنظر إلى النافذة وهى عارية ليس عليها أستار ، وأمامها بناء عال تحجب عنها الشمس . فخيل إلىّ أنها تقول :

— أيكفيك هذا النور ؟ ...

فأجبتها فى هدوء :

— يكفينا وإنه النور النقى فى نفوسنا !

ثم بدا على الفتاة أنها فهمت عنى . لأن سطور وجهها ما زالت تنم عن خيبة الأمل !

على أن الذى أزعجنى هو نفورها من ذلك !

ما الذى دفعها إلى المجئ ؟ وما [illegible] إلى المقعد الساعة ؟ ونظرت إليها متأملاً فوجدت

— إذا صدقت فراستى أيتها الآنسة فأنت لم تخلقى للأدب !

فقالت فى غير تحمس وهى تبحث بعينيها عبثاً عن مرآة فى الحجرة :

— لم لا ؟

فلم أحر جواباً ! لم أستطع أن أذكر لها السبب ، إنما جبلة . إن الأديب قد يعطى الأدب « حياته » ، لكنه لا يعطى الأدب « جماله » . وأردت أن أستخرج سرها فقلت لها :

— أى أنواع الأدب تحبين ؟

فظهر عليها الارتباك . لكنها أسرعت تخفيه بحركة من يدها فتحت بها حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها مرآتها وأصبع أحمرها ، وجعلت تتزين وهى تقول :

— لست أفضل نوعاً على نوع .

فحددت إليها النظر ثم سألتها متأنياً :

— لماذا تشرفيننى بالزيارة ؟

فأجابت وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة :

— لأنى ... سمعت عنك كثيراً ...

— أقرأت لى شيئاً ؟

— الطبع ...

— ماذا قرأت لى ؟

— آه ...

وتظاهرت بالنسيان ومحاولة التذكر . فلم أرد المضى فى إحراجها . ولزمت الصمت . وجعلت أصابعى تعبث [illegible] . وأدركت أن هذه الفتاة تسخر منى ، فأكثر الفتيات المغرورات اللاتى يلذ لهن مداعبة الرجال [illegible] ... المسكين الرهيب ! فقلت لها فى شئ [illegible]

[illegible] الآنسة ! لماذا كتبت إلىّ تقولين إنك تريدين الاشتغال بالأدب ؟

فقالت وهى تعيد مرآتها وأصبع أحمرها إلى حقيبتها :

— لأنى أريد ذلك . أهو شئ صعب الاشتغال بالأدب ؟

فلم أعرف كيف أجيبها . وشعرت فى نفسى بما يشعر به رجل الدين ، إذ يرى شخصاً يقذف محرابه بحصباء ، ولعلها رأت منى ذلك . فهى لا تخلو من ذكاء يلمع فى عينيها النجلاوين ، فبادرت تقول لى :

— أأعترف لك بالحقيقة ؟

وسكت قليلاً . وتأملت نفسى فى جلستى وعباءتى وطربوشى ، وتأملت حركاتها الأخيرة ، فخيل إلىّ أنى راهب يئوس يحادث الغانية . ورفعت الفتاة رأسها . وألحت علىّ تقول :

— الحقيقة أني لا أحب الأدب .. ولم أقرأ كتاباً قط منذ تركت المدرسة .. ولا شيء يثقل على نفسي مثل الكتابة والقراءة .. إني لا أكتب رسالة إلى إحدى صديقاتي حتى أتناول بعدها قرصاً من الأسبرين .. إني أحب السينما وسباق الخيل والرقص والموسيقى ...

فقاطعتها قائلا :

— « الجاز » طبعاً !

فقالت في نبرة المتحدث عن شيء مفهوم بالبداهة :

— طبعاً .

فتنهدت وقلت كالمخاطب نفسي :

— ألم أقل إن فراستي قد صدقت ...

ولم تترك لي الفتاة وقتاً للمضي في الكلام .. فأسرعت تقول :

— نعم .. ولكني مع ذلك أريد ...

ثم أمسكت نفسي وصمتت :

— تريدين ماذا ؟

فارتفع صوتها في قوة وعزيمة :

— أريد أن أحب الأدب .

فلبثت فترة مضطرباً من الدهشة .. ولم أدر ماذا أقول لهذه الفتاة المدللة :

— أتحسبين أيتها الآنسة أن الأدب فن جميل من فنون الرقص ، أو حصان « الفوريت » من خيول السباق ؟

فتجهم وجه الجميلة وأسدلت أهدابها الطويلة .. ورأيت كأن هماً كامناً يعبر أرهق نفسها .. وأخيراً انتفضت وقالت متوسلة :

— أرجوك .. أرجوك ! لا تردني خائبة يائسة !

فقلت في رفق :

— أنا طوع أمرك يا سيدتي .. لكن ... فلنتكلم في حدود المعقول .

— نعم .. اجعلني أحب الأدب ، بأي ثمن ، مهما كلفني الثمن .

— هذا يا سيدتي غير معقول !

— لماذا ؟

— لأن الحب لا يطلب ولا يشترى .. وأنت أدرى مني بذلك .

فهمست في ألم :

— نعم .. هذا صحيح ... آه ! ...

وأطرقت برأسها .. وتذكرت أني لم أسألها بعد عما يدفعها إلى هذا الطلب الغريب .. فالتفت إليها أستوضحها الأمر .. فأسرعت قائلة :

— لا تسألني ! ما الفائدة .. ما جئت لأقص لك قصة ! ...

ثم همت بالانصراف .. فنهضت وأنا أفكر في أمرها .. فبعثت إلي بنظرة مودعة وهي تقول :

— إني آسفة لإزعاجك .. إني جد حمقاء .. كنت أعتقد أن كل شيء في الإمكان ! ...

فقلت لها ويدها في يدي :

— نعم .. كل شيء في الإمكان .. ما دامت الإرادة قوية والدافع نبيلا .

فحدقت بعينيها في الطلب وقالت في عجل :

— وإذا ضمنت لك قوة الإرادة .. ونبل الدافع .. أتعدني بالمساعدة ؟

ورأيت في عينيها بريقاً ينم عن أمل متجدد ، فخشيت أن أطفئه بكلمة .. غير أني خشيت أن أخلع على نفسي عهداً لا أستطيع الوفاء به .. وأنا أجهل بعد كل شيء في الموقف .. فأنا وهي بلا ريب ، ونحن نتكلم في أمور تختلف معانيها باختلاف المتكلم .. وكلمة « الأدب » لها عندي

فسلوك لم أر ما فعلت الفتاة . ولم ألمس بعد إدراك حرارتها ولا ألمها ولا يأسها . فقلت :

— أيتها الآنسة ! إني أعتذر ... حتى اليوم ... أليس لي الحق أن أفهم على الأقل أصل الموضوع ؟

ففكرت قليلاً ، ثم التفتت إليّ قائلة :

— أتحرجني بالأسئلة إذا أجبت . [illegible] أن أبي ولا أعلم أسرتي . كل ما أستطيع الإفضاء به إليك هو : أن لي خطيباً أحبه ويحبني . وهو مثلي الأعلى الذي كنت أحلم به دائماً . ليس فيه عيب غير أمر واحد : إنه يحب القراءة في كتب الأدب . إنه يذهب بي إلى السينما ، وإلى سباق الخيل ، ويحادثني في كل ما أحب . ولا أستطيع أنا أن أحادثه فيما يحب . إنه يسميني « الفتاة التافهة » ، ويغفر لي كل شيء إلا [illegible] الذي يحدث بيننا ، إلا عن طريق الحديث فيما يسميه « تافهاً وجاهلاً » . إنه يقول لي دائماً : [illegible] حياتنا الزوجية هي أنه لن يستطيع [illegible] شئون الفكر ...

« إن ابن أختي كان قد قال لي يوماً : " لن يحدث الزواج بيننا ذلك الاتصال التام الذي طالما تمنيته في زوجتي . إن نصف الحياة وهي حياة الفكر ستبقى دائماً خارج نطاق الزوجية . فأنت لا ... " أين يكون ذلك من غير عمق ! »

ولقد حاول المسكين أن يضع بين يدي كتباً فكنت أطرحها وهي ... إني أمقت الكتب . ولكني أريد أن يكون لي النصف الآخر من زوجي . أريد أن يكون كله لي جسمه وفكره ...

« إنه يحب أيضاً لعب " الشطرنج " ، وكنت أنا لا أميل إلى " الشطرنج " ولا أفهمه . ولكني بإرادتي استطعت أن أتعلمه وأتذوقه وأحبه في مدى بضعة أشهر . لقد نجحت إرادتي في كل شيء إلا في الكتب . لذلك جئت أطلب معونتك . إن خطيبي يحب كتبك وقد قال لي إنها بسيطة وتصلح لي . ولكني للأسف ، أعترف لك أنها ثقيلة على نفسي كغيرها من الكتب . إن الدواء عندك ولا شك يا سيدي . إني أعتقد أن خالق الداء قد خلق له الدواء . إن كل سعادتي الزوجية هي الآن بين يديك . أتدري كيف تستطيع فتاة تافهة مثلي أن تصلح أمرها لترتفع شأنها في عين زوجها ؟ أفهناك أمل في أن يصبح فكري في مستوى فكره ؟ تكلم يا سيدي ، أليس لي أمل في اجتياز أعتاب تلك المنطقة السامية المقدسة التي تسمونها منطقة « الفكر » . هل كتب عليّ إلى الأبد أن أبقى خارجها أتطلع إليها ؟ »

وسكتت الفتاة ، وتركتني واقفاً في شبه ذهول أحوي [illegible] الأسئلة الباكية . ولأول مرة في حياتي أدرك أن رجل الأدب له رسالة تماثل رسالة رجل الدين . [illegible] الخالق . ولكني لم أوقن أن الأمر [illegible] . ومرة أخرى طافت برأسي صورة [illegible] الغابة المعهودة جاءت الراهب تجر وراءها كل متاعبها القلبية في الصلاة والدمع ، وطرقت باب صومعته تلتمس أن يكشف لها عن نور الحق . أتراه قد أبى عليها وردها يائسة ؟ لا . ليس من حق راهب أن يصد إنساناً عن نور الله . أنا أيضاً ذلك الخادم من خدام الفكر ، والراهب المنقطع لنشر نوره ، فأي حق لي أن أدع اليأس في قلب من يريد وجهه ؟ وهنا أيضاً أدركت أن عليّ واجباً آخر غير واجب الخلق والتأليف . نعم ، عليّ أن أبذل جهدي على قدر الإمكان لتلك النفوس المسكينة المتعبة ، وأفتح نوافذها رويداً رويداً لنور الفكر الدافق ...

ورفعت رأسي ، والتفت إلى الفتاة قائلاً :

— اعتمدي عليّ !

توفيق الحكيم

العبرة بالخواتيم

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يرجع تاريخ هذه القصة — إذا جاز أن نسمي قصة — إلى ذلك العهد الذي كان فيه القلب خالياً، والعقل غلاماً، وكنت يومئذ سمكاً كما [illegible]، وباردا، كالسمكة في الثلاجة! كذلك كانت تقول عني زكية، بنت ابن خال ابن عم أبي... فرحمتي والسلام، وإن كانت حواء — فيما يبدو لي الآن — أقرب إليّ، وأشبه بي، وأرحم أيضاً، وكانت يتيمة تقيم مع خال لها، ولكن اليتم لم يزل لها حزناً، ولم يصدها عن الجرأة، ولم يضعف قلبها [illegible]... قلبها بنفسها!؟ إنه ليخيل إليّ أن هؤلاء [illegible] وعندي لا بد أن يكونوا قد ألقوا عليها دروساً في الثقة بالنفس [illegible] بالذات — بلا شك — [illegible] وأحسب — [illegible] أيضاً — أن الكراهية [illegible] وكان السبب [illegible] أحسبه أنه يمتد إلى جرم [illegible] أو بعبارة أدق «خفيف اليد». أما الداعي إلى كرهي له فذلك أنه كان قاضياً، فاتفق يوماً أن أقامت الجمعية الخيرية الإسلامية حفلتها السنوية في حديقة الأزبكية، وكانت تزين سور الحديقة بمصابيح وقد فيها الشموع. وكنا نفراً من الطلبة، فلما قضينا كل حاجة داخل الحديقة، دار في نفوسنا جميعاً خاطر واحد، هو أن نخرج، وندور بالسور، فنطفئ الشموع، ونجعل منها في جيوبنا ما تتسع له... شقاوة تلاميذ، لا أكثر ولا أقل. ولكن سوء الحظ أبى إلا أن يرانا الشرطي... ولا أطيل. كان من سوء الحظ بعد ذلك أن يكون القاضي خال زكية! فهل تعرف عالماً حكم على هذا الرجل ذي الوجه الباذنجاني، ولا شارباه المفتولان؟ غرمني مائة قرش!! تصور مائة قرش غرمها تلميذ في سنة ١٩٠٥! إلا لقد كانت ثروة! وكان يكفي في رحمه أن مثل هذه الشقاوة أن يقطب بوزه، ويرقق ما بين حاجبيه، ويقول: «عيب يا ولد، أنت وهو... امشوا اخرجوا، ولا تعودوا إلى مثل هذا، أفهمتم؟» بل كان ينبغي أن يؤنب الشرطي الذي جرنا إلى «القسم» وأن يفهمه أن هذا لعب أطفال، ولكنه كان غليظاً غليظ الكبد، ولعله كان يتوهم أن هذه الغرامة ستكون من نصيبه! وقد بقيت «محجوراً» حتى جمع المال! فهل من العجيب إذا قلت إن كرهي له كان يشتعل في قلبي كالشريحة، أو كشعر رأسي — في ذلك الزمن؟

ولا أحتاج أن أقول إني كنت أمقته، وأني كنت، إذا اضطررت أن أذهب إلى بيته، أحس كأني أساق إلى المشنقة، ولكن زكية لم تكن [illegible] من زيارتنا ما كان [illegible] خلفها، وكنت أحس — وهي معنا — [illegible] وكانت لا تتركني حتى تورطني في [illegible] السلامة. وقد أغرتني مرة بأن [illegible] عليها، أحد شاربيه، وهو نائم... ومن السهل عليك أن تتصور ما حدث بعد ذلك... أي بعد أن خرج الرجل لشأن له ولاحظ أن كل عابر سبيل يضحك منه، وأن الجالسين أمام الأبواب أو الدكاكين وفي المقاهي يتغامزون عليه ويشيرون إلى وجهه...!

ولا أدري كيف كان يحدث هذا كله، ولكن الذي أدريه أني كنت حين أراها أتجهم لها، وأصمم على رفض كل ما توحيه إليّ من رجاء، وأقول لنفسي: «كن حجراً صلباً، لا تمزحها أبداً، ولا تعبأ بها، ولا تحفل بدموعها» ثم تتقشع السحب، وتصفو السماء، وإذا بها قد حملتني على مكروهي! فأظن أن شمشون كان معذوراً فيما وقع فيه بفضل دليلة!

وقالت لي زكية يوماً: «اسمع. أريد منك أن تذهب

إلى دكان ... فإن فيه « قيثاراً » طريفاً تحدثني نفسي أن أشتريه ، ولكني أريد رأيك فيه قبل أن أقدم . فإذا علي : تأمله ... جسه ... افحصه جيداً ... ثم عد إلي برأيك ... »

ولم أر في هذا بأساً فذهبت إلى الدكان . ولكن من قال أني رأيت فيه ؟! خطأ من قصتك ! وقد يجب أن أزيدك بياناً ، فاعلم أنني أنه كان يشخص « القيثار » الذي وصفته ! وقد أصررت على أن هذه مصادفة ليس إلا ، ولكني لا أصدق . وكنت قد دخلت الدكان كالقنبلة ، فلما وقفت عيني على الخال الفاضل وقفت كأنما صدمني حائط ، ودار رأسي ، وتخلخلت ركبتاي ، وخفت أن أهوي إلى الأرض ، فمددت يدي لأتكئ على شيء ، فوجدت شيئاً — لا أدري ماذا فقد كانت عيني على الخال وعقلي معه — فسقطت ، وحاولت أن أتشدد ، وفكرت في التهوين والهرب ، وإذا بالخال يدور فيراني ، فيقف ، ثم يقول : « ماذا تصنع هنا ؟! » .

فأقول متلعثماً : « لا ... لا شيء » .

فيقول : « هل كففت عن السرقة ؟! » .

فأتشجع وأقول : « لم تكن هذه سرقة ، ثم إن ... » .

فيقاطعني ويقول : « لقد كان حقك السجن ... ولكني رحمتك » .

وأتم كلامه ، ولكن الذهول الذي استولى علي لا أحفظه ، فقول إن انتزاعي مائة قرش كان عملاً رحيماً ، فعقل لساني .

فيقول : « وماذا تصنع الآن ؟ » .

فيقول رجل معه لم أفطن إلى وجوده : « يسرق العصي على ما يظهر ، فإني أرى يده على عصاك » .

فأرفع يدي كأنما شكني مسمار محمي ، وأنظر إلى العصا وهي تقع على الأرض ، وأرى — كأني أحلم — الخال ينحني ويتناولها ، ثم يحدجني بالنظر الشزر ، وأقضي في عقلي أن أشرح له كيف اتفق أن أضع يدي — عفواً إلا قصداً — على عصاه ، فأتردد ، وأحجم ، وأطبق فمي ؛ وماذا يمكن أن أقول له ؟! ليس من السهل أن تقول لقاض حكم عليك بغرامة فادحة : إنه بخيل خسيس وإنك تمقته أشد المقت ، وإن رؤيته تسود في عينيك نور الضحى ....

ورأى هو اضطرابي ، وتعثري ، فيكون هذا عنده بمثابة الاعتراف ، ويقتنع بأني مفطور على السرقة ، وأن اللصوصية شيء في دمي ... ولست أشك في أنه كان في تلك اللحظة يتمنى لو كان في المحكمة ، وأنا أمامه ليبعث بي إلى السجن .

ولأمر ما ، ترك ما كان فيه ، وجر صاحبه وخرج . فتنفست أنفاسي ، وطهر الجو فيما أحس ، واستعدت رباطة جأشي ، ووسعني أن أكلم صاحب الدكان ، وأن أتناول القيثار ، وأتأمله ، كما أوصتني تلك اللعينة ، وأن أقول إنه صدئ ، وأنه لا يساوي شيئاً ! فيحتج الرجل ويقول : « صدئ ! أين هذا الصدأ ؟ اخرج به إلى النور وانظر » .

فأتناول « القيثار » وأخرج ، ولكني أعثر — في مدخل الباب — ويطير « القيثار » من يدي ، وأسكب أنا ... على صدر الخال الفاضل !!

وأفيق ، وأعرف على من وقعت ، وعلى من اصطدمت ، فأضع ذيلي في أسناني وأهرب !

* * *

وتصور أن تجيء زكية ، بعد ساعتين ، وتقول لي : « إن عندك رجاء يا روحي » .

فسرت في بدني رعدة ، فما تقول لي « يا روحي » ، إلا وهي تنوي أن تورطني في أمر خطير ، ولم يخطئ حدسي ، فقد ذكرتني بأن لها قريباً تحبه ، ويحبها ، ولكن وظيفته صغيرة ، فلعلها لا تغنيه ، سيرتضي أن

يوافق على زواجها له ، وصحيح أن هذا هو ميراثها ، ولكن هذا لن يكون له تأثير في رأيي خطأ .

وسألتها ، وأنا أحسست بشيء بأن وقوع البلاء أهون من توقعه : « لماذا تقصين علي كل هذا الذي أعرفه ؟ » .

فقالت : « لأننا اتفقنا — أنا وأخي — على أنك خير من يستطيع أن يساعدنا » .

فصحت بها : « أنا ؟ كيف ؟ » .

قالت : « لا تصح هكذا ... نعم أنت ... في وسعك أن تحمل خالي على الرضى » .

فكاد عقلي يطير ... ولى الطير ... والعجيب أني ضحكت ، بل قهقهت ، ولكن هذا ليس غريباً ، ألم يقولوا إن شر البلية ما يضحك ؟

ولما استطعت أن أتكلم قلت : « أتمنى ... آسف جداً ... اذهبي إلى مكان آخر » .

قالت : « ولكنك تحب أمي [illegible] » .

قلت : « إنك أنت التي جئت [illegible] رأسك عقل .. كيف تتصورين أن يكون في وسعي أن أذهب إلى هذا الرجل — معقرة — وأقنعه ... أنا ... أنا أقنعه بأن أخذ [illegible] ، وأحمله على الرضى به ؟ ! هل جننت ؟ إن خالك لا يطيق أن يرى وجهي ... يعتقد أني لص ... مجرم بطبيعتي » .

فأدهشني أن أسمعها تقول : « هذا هو الذي يجعلك أقدر الناس على مساعدتنا » .

فتحت فمي ، وحلقت ... كالأبله ... ما كنت أظنه حجة لي ، تقلبه هي حجة لها علي . والحق أن المرأة مخلوق آخر ...

وقالت : « ألا تفهم ؟ كل ما عليك هو أن تذهب إليه ، وتقول له يا عمي ، أو يا خالي ... ماذا تسميه في المصلحة ؟ » .

قلت : « البلاء الأزرق ... وقل له ذلك » .

قالت : « قل له ما تشاء ... ولكن قل إنك تحبني ، وأني أحبك ، وأنك تريد أن تتزوجني ، فأنت ... » .

فقلت : أعذريني ، وأنا مسرور جداً ، ومغتبط ، ولكن لكل شيء حداً ، وقد كلفتني خالتها أكثر مما ألهى أن أدرك ، ولكن هذا شطط لا سبيل إلى احتماله ، وقد بثثت لها رأيي فيها بأصرح ما أستطيع ، ولمتها ولمت صاحبها أو قريبها بأمر لفظ :

ولكنها لم تغضب ، بل قالت لي : « يظهر أنك لم تفهم . هذا اقتراح أخي ، وهو كما تعرف ذكي جداً ... شعلة ذكاء . وهو يقول إن خالي يكرهك كره العمى ، وإنه يعرف أنك تحبني وتخطبني ، وأني أحبك ، وراضية بك ، [illegible] يقول : « كله إلا هذا » ، وهو يعرف حق المعرفة أنه لا [illegible] له عن [illegible] لأني [illegible] رغبتي ، فإذا جئت أنت [illegible] لا أرضاك زوجاً لي ، فيسمعه الآن [illegible] غير [illegible] ... هل فهمت الآن ؟ ... المسألة كلها لن تستغرق أكثر من نصف ساعة وتخرج أنت مسروراً بحالك ، وأسعد أنا وأخي بقية العمر بفضلك !! » .

وبدا لي ، وأنا أدير هذا الاقتراح في رأسي ، أنه لا يخلو من سداد ، وإن كانت أشياء تحك في صدري ، وهي مخاطرة على كل حال !

وسألتها : « هل أنت واثقة أن هذا الحي يقبل كل شيء ، إلا أن يزوجني منك ؟ إني لا أريد أن أقع أنا في الشرك ! » .

قالت : « لا تخف . وهل تتصور أنه يخطر له أن أرضى بك زوجاً ؟ » .

قلت : « أشكرك . ولكني أحب أن أكون على يقين » .

* * *

وقد كان ... دخلت على الخال ، فألفيته لم يفق من تعجبه لاستيلائي عليه ، فظلت أحاوره قليلا حتى أسري عنه ، وأرد إليه روحه ، ثم ألقي القنبلة ، وسيسرني أن أراها تنفجر بشلائه ، وتمنيت أن يحدث له ما سيسمع مني سكتة قلبية ، أو على الأقل فالجاً ... وقد كاد فعلا يحدث حين سمع مني أني أخطب لنفسي زكية ، وأني أحبها وتحبني ، وأنها ترضاني بعلا لها ... هراء بالطبع ولكنه لا يعرف أنه هراء ... وقد انتفض واقفا ، وضرب المكتب بجمع يده ، فكان من دواعي اغتباطي أن يده وقعت على سن غطاء الدواة ، فصرخ كأنما أصابته طعنة خنجر ، ثم صاح بي : « اخرج من هنا ... حالا » .

قلت : « ألا تسألها أولا ؟؟ إنها في وسعها أن تتكلم ، وستتكلم . فادعها تحضر » .

ولا أدري من أين رزقت كل هذه الجرأة ... أن الذي شجعني يقيني أني أكرهه ... وأني أنتقم لنفسي ، وأثأر منه ، وأعوض ما ... تحرمني مائة قرش من أجل حمل صيباني .

وعاد إليه عقله لما نبهته إلى أن زكية ليست بقاصر ، فدعا بها إليه ، وقص عليها الخبر ، وهو يظهر الاشمئزاز والتقزز كأنما شمت فأراً ميتة .

فقالت له : « ولكن يا خالي هذا مستحيل ... إن أحمد هو الذي يريد أن يتزوجني ، وهو الذي أرضى به » .

وكانت جرأتها في هذا أعظم من جرأتي أنا عليه ، فقام وراح يقطع الغرفة كالثور الغضبان ، ويصيح : « وهل عندنا بنات يفعلن هذا ؟ ما شاء الله ! ... حلال ... لم يكن باقياً إلا هذا !! » .

فقالت بهدوء : « إذا كنت لا ترضى بأحمد ، فالمسألة بسيطة . سأرضى بخليل ، ولم لا ؟ مستقبله حسن ... ومركزه الحالي لا بأس به ... » .

فقاطعها وصرخ : « لا لا لا لا ... » .

قلت : « إذن ترضى بأحمد ؟ » .

فلم يسعه إلا أن يرضى ، وانحط على كرسي ، وانحطت عليه زكية ، تقبل جبينه .

ولم يسعني أنا إلا أن أتسلل وأخرج ...

فيالها من فتاة !!

ولقد عرفت "كل" ما جرى "بعد" ، لأنها مكنتني من شفاء غيظي وغلي !!

... مائة قرش ؟ يا حفيظ يا رب ! ...

إبراهيم عبد القادر المازني

مع الرسالة :

«الغمرات ثم ينجلينا»

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تطلع معاوية بن أبي سفيان إلى البحر، بحر الروم، بعد أن استقر العرب في بلاد الشام، واستدرجهم الفتح إلى أطراف الجبل من آسيا الصغرى؛ وتأمل ذلك الطريق السهل الأزرق الذي لا تقوم فيه عوائق الصخر، ولا تسد سبيله المعاقل والحصون؛ فذهب خياله إلى قسطنطينية العظمى، ورآها دونه لا يقف شيء في سبيلها إلا ذلك الموج الأزرق المتلاطم.

كان هذا البحر مطية للروم، يحملهم في السفائن الضاخمة ذات الصواري العالية، فيسلطهم على سواحل الشام، فإذا ما أصابوا من تلك السواحل [illegible] إغارة، وأحسوا العرب يسارعون نحوهم للدفع عن حوضهم عادوا إلى السفائن فاستقلوها، وذهبوا في عباب البحر، فلا يستطيع فرسان العرب أن يلحقوا بهم، ويقفون على الساحل ينظرون في آثارهم وقد ملأ الغيظ قلوبهم، يتحرقون على إفلات عدوهم وهم لا يستطيعون أن يقتحموا تلك اللجة الزرقاء وراءه.

وقال معاوية في نفسه: «ماذا يمنع العرب أن يكون لهم مثل تلك السفائن العالية؟ وماذا يعجزهم من أمر ذلك البحر؟ أليس لهم بالشام مثل ما للروم من غابات ذات أشجار باسقة وجذوع متينة؟ أليس لهم في مصر والشام من الصناع من يقدر على بناء مثلها؟ وهل يعجز القلب العربي أن يجترئ على تلك الأمواج كما يجترئ على الجبال والوديان؟».

وأرسل إلى الخليفة عمر يبسط له رأيه، ويستأذنه في الإقدام على اقتحام البحر في أسطول للفتح وراءه.

ولكن عمر كان لا يعرف البحر، ولا ما يحتمه من مخاطر. وكان يضن بالعرب أن يغرروا في مخاطرة خطرة عليهم أن تطويهم في بطنه قبل أن يصلوا على ظهره إلى عدوهم. فأبى أن يجيب معاوية، وقال له في عبارة من عباراته: «لا أخاطر بالمسلمين»، فأمسك عن ذلك القول.

ولكن معاوية كان رجلاً مملوءاً بالآمال، فكتب إلى الخليفة مرة أخرى يلح عليه في الاستئذان أن يقتحم البحر، وجعل يهون أمره ويستخف خطره ويصور سهولة مناله، فقال له في بعض رسائله: «إن بحمص قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح دجاجهم» وتقرب الريح إذا هبت من جنوب الغرب من فوق أمواج ذلك البحر اللجي.

وتردد عمر قليلاً، وكاد يهم بالإذن له، فقد كان يعرف معاوية أريباً، ويعرف كيف يصور سداد حجته، ويكشف عن وجوه الحق في عزيمته. ولكنه لم يرد أن [illegible] متشتت، ويتروى الحق يتبين نفسه، [illegible] إلى عمرو بن العاص يستطلع رأيه في اقتراح معاوية، لقد عرف من قبل أن عمراً رجل يجمع بين الشجاعة والحذر، ويصبر في فنه بطرق الإقدام وحسن الرأي. فقال في سؤاله لعمرو: «صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه». ثم بين له مقصده من سؤاله، وأنه يهم بأن يأذن للمسلمين أن يذهبوا فيه إلى الروم في عقر دارهم ومعاقل دولتهم.

وفكر عمرو في الأمر طويلاً قبل أن يجيب، وقامت في نفسه شكوك وثارت له آمال، ولعله رأى أن معاوية إن انصرف إلى البحر طالت يده وبسطت كلمته، فلم يكن سواه لفتح الثغور، ولم يكن غيره لقيادة العرب في وجه الروم. فكتب رده إلى الخليفة يصف له البحر: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق».

وكان في ذلك الكتاب فصل الخطاب . فأرسل عمر إلى معاوية يأمره بالكف عن عزيمته ، وكان رده يحمل صورة من خشيته التي ما كان في العرب من يستطيع مراجعتها .

قال عمر : « أما والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

صبر معاوية على مضض وسكت على قلق ، ولم تزده السنون إلا وثوقاً بسداد رأيه .

ثم تولى الخلافة عثمان ؛ فرأى معاوية أن الفرصة قد سنحت له بعد لأي . فألح على الشيخ يحرك عزيمته ، ويوضح له خطته حتى تردد ولان ، ثم ما زال به حتى رضي وأذن . وكان عمرو بن العاص عند ذلك مبعداً من عثمان معزولا عن ولايته في مصر ؛ فأهمل رأيه وفاز معاوية بما كان يصبو إليه .

غير أن عثمان أباح ركوب البحر إباحة المشفق المترفق ، فشرط على معاوية ألا يرغم أحداً على [illegible] من العرب أحداً بذاته ، ولا يقرع في الاختيار بين الناس ، فمن شاء طائعاً حمله وأعانه .

وما كان العرب ليكفوا عن اقتحام المخاطر ، وما كانوا إذا خيروا أن يختاروا إلا خوض المجاهل ، فما أسرع ما تزاحم الفرسان عند الشاطئ ، وما كان أشد حماستهم وهم يشاهدون السفن الشامخة ، ويتأرجحون بها فوق أمواج البحر المضطرب . وكان قائدهم الأول شاباً من بني الحارث وهو عبد الله بن قيس حليف بني فزارة .

واستعدت السفن للسير في يوم ساكن هادئ الريح ، واجتمع الفرسان قبل الركوب على الشاطئ ليقيموا الصلاة قبل الرحيل ، وسجد عبد الله بن قيس سجدة طويلة يدعو الله فيها أن يوفق حملته ويعز غزوته ، وكانت دعوته لله أن يرزقه العافية في جنده لا في نفسه ، وأن يكتب له الاستشهاد فداء لإخوانه ، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم . وسارت السفن بعد ذلك تحمل الكتيبة الرائدة ، وغابت عن أنظار المسلمين وراء الأفق الفسيح الأزرق .

كان عبد الله ينظر إلى السماء الصافية وهي تنطبق على صفحة الماء عند الأفق ، ويرى السفن في اليم تسير بسم الله مجريها ، فيمتلئ قلبه نشوة ، ويحس بإحساس الرائد الأول في بهجة المنظر الجديد ، ولذة التجربة الأولى ، ثم يتذكر مخاوف العرب من البحر ، ويقول في نفسه : ما كان للمسلمين أن يضيعوا كل تلك السنين في التردد عن هذا السبيل الممهد الصافي . ولكنه لا يلبث أن يرى في الأفق سحابة تتهادى ، ثم تخطر نحوه ، ثم يرى السماء قد تلبدت ، واضطرب الهواء ، وتجهم وجه الماء ، ثم اختلج وثارت ثائرته ، وإذا بالسفن تتطاوح مع الرياح وتتقاذفها الأمواج المتلاطمة ، وتكتنفها من جوانبها كأنها الجبال الشامخة . فيتذكر [illegible] أن الشهادة في الماء كالشهادة في البر ، تؤدي إلى الجنة التي يطلبها المسلم في جهاده ، ويتطلع إلى أصحابه [illegible] في وجوههم ذلك الثبات الذي يجيء مما [illegible] من الإيمان والإقدام ، والحرص على تلك الشهادة التي يتطلع المسلمون إليها .

وتمضي على تلك العاصفة ساعات ثم ينجلي الأفق رويداً وتعود إليه زرقته ، فإذا الهواء رهو ، وإذا الماء ساكن صاف ، وإذا السفن تعود إلى سيرها الوديع المطمئن بسم الله مجريها . فيسفر وجهه ويتهلل ، ثم يشير بيده في الهواء ويصيح بصوت فيه رنة الفوز والبطولة : « الغمرات ثم ينجلينا » . فيصيح أصحابه وراءه وقد علاهم البشر ، وأضاءت وجوههم كما أضاء وجه قائدهم الباسل ، ويصيحون بعده قائلين : « الغمرات ثم ينجلينا » . وأصبحت تلك الصيحة رمزاً لهم واصطلاحاً بينهم ، يعرفون بها صاحبهم ويعرفهم بها صاحبهم . ونزل العرب بعد حين إلى بر الروم ، وغزوا ربعهم وحاضرتهم ، وعادوا بالغنائم والنصر سالمين ، وأرست سفنهم عائدة إلى الشام ، تبشر المسلمين أن البحر أيسر السبل إلى الانتصار ، وأنفعها لمن أراد الهجوم أو الفرار .

وفد عبد الله وأصحابه إلى الغزو ، وقد زاد عددهم ، وقويت همتهم ، فكانوا مثلث ذلك أجرأ على البحر ، وأكثر اطمئناناً إليه ، وخبرة بسبله . وكان عبد الله كلما اصطدم بالروم في ملحمة ، واشتد عليه وعلى أصحابه وقع القتال ، وأحس الخطر يحيط به ، تطلع إلى الأفق ، وتمتم بصوت خافت ، يدعو الله أن يحفظ عليه ما عوده من العافية في أصحابه ، وأن يجعله لهم فداء ، إذا كان القضاء قد جرى بمصيبة تحل بأحد منهم . ثم يقبل على أصحابه وهم في معمعة القتال فيصيح بهم صيحته : « الثمرات ثم بجانبنا » فسرعان ما يستجيبون له ، ويهتفون معه ، فإذا العدو مأخوذ مضطرب ، وإذا سفنه مهزومة مشتتة ، وإذا أبطالهم يولون الأدبار بين أيديهم .

وقضى عبد الله في تلك الغزوات سنين ، وعد من غزواته خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، وبين الثلج في حارة القيظ ، وهو في كل غزوة مرجع الأمل متعلق بالفوز والنصر ، حريصاً على التقدم إلى الغزوات نحو سواحل الروم من طريق اللجة المأمونة ، ولم يرزأ في كل تلك الغزوات بكارثة في أصحابه ، واستجيبت دعوته العافية في أتباعه .

ثم عزم على انتهاج خطة أجرأ وأخطر ، وأراد أن ينزل في عرض الساحل ، لعله يفتح للعرب أول فتح ، ويضع أقدامهم في ثغر من ثغور الروم . ولكنه تروى وأشفق أن يخاطر بقومه في خطته ، وعول على أن يستوثق من خطوته قبل أن يخطوها ، فتقدم القوم ليكون طليعتهم ، حتى إذا لقي ما كان لهم فداء ، فلبس دروعه ، وتزيى بزي الملاح ونزل خفية في سفينة صغيرة مع ملاح فرد ، ليتحسس الساحل ، ويستطلع ما فيه من رجال وحصون .

ونزل في المرفأ ، ثم صعد إلى الساحل ، وأخذ يجوس خلاله ، وهو ثابت الجنان ، مطلق السر ، مرفوع الرأس ، تبدو عليه مهابة القائد الظافر ، والأمير المطاع ، فتكشف ما يدل عليه زيه البسيط ، التي أخفته لكي يخفي عن الأنظار حقيقته .

وكان في المرفأ جماعة من الفقراء ، اعتادوا أن يجوبوا بقاع الساحل ، يترقبون في القادمين سلعهم ، أو يطلبون إحسانهم ، لقاء أجر يجبونه ، وكان من بينهم نساء فقيرات جئن يلتمسن من النازلين شيئاً من البر ، شكراً على سلامتهم من أهوال البحر .

وكان من بين هؤلاء امرأة طال ترددها على سواحل البحر ، وشهدت من قبل سفن العرب تهبط وتغزو وتنتصر ، وسمعت صيحتهم العجيبة ، التي كانت تفزع فرسان قومها ، وكان قائد العرب يسترعي نظرها بحسن قوامه ، وسلامة عوده ، وارتفاع رأسه ، وهيبة منظره ، ورنة صوته الجهوري ، إذ يصيح في قومه بلغة لا تفهمها ، ولكنها تحس ما فيها من روعة وقوة .

وتقدمت إليه تطلب الصدقة من القادم الغريب ، الذي نزل في زي التجار ، وسار على الساحل سير الأمير المهيب . وما كادت تسأله حتى بذل ، وكان بذله بذل من تعود العطاء من الملوك ، لا صدقة من أهل المساومة والمراجعة من التجار .

ونظرت إلى قوامه وسلامة عوده ، ثم وقفت النظر في وجهه وارتفاع رأسه ، ثم وقعت عيناها على عينه البراقة اللامعة ، ورأته يبتسم في رفق كأريحية كريم ، ويتكلم بصوت عذب فيه رنة الأمر والاعتداد بالنفس . فتذكرت منظراً أخذ صورته إليها ، ووقع ما سبق في أعماق قلبها ، وقالت في نفسها بصوت خافت : هذا هو ! هذا قائد العرب صاحب الصيحة الرهيبة ، والسطوة القارعة ، هذا هو الذي هتف قومي باسمه مراراً ، وهم يتميزون من الغيظ ، ويتحرقون من عجزهم عنه . هذا ابن قيس . ثم ولت متعوذة ، تركته يسير عند الساحل ، وينظر حوله إلى الحصون ومواقع الفرق ،

وأسرعت إلى قومها في القرية ، فصاحت وهي ثائرة النفس مروعة : هذا هو فقيدكم الذي ظننتم [illegible] هذا قائد العرب في زي التجار يخوض خلال أرضكم ! .

سخر منها الناس واعرضوا وقال قائلهم إنها تهذي ، وأين لمثله أن يعرف ابن قيس حتى تنبأ عليه . واستمع أهل القرية حتى قالت المرأة ، وتضاحكوا وتغامزوا ، وأقبلوا عليها يالمون في السخرية والسفه .

فضجرت المرأة من تكذيبهم ، وقالت لهم في صرخة حانقة : « وهل مثل المرأة في العود إلى كنه الرجال ؟ لقد رأيته وهو يوقع الرعب في صفوفكم ، ولكم تمنيت أن أكون من قومه أو يكون من قومي . قامة ممشوقة ، وبدن قوية ، وعين [illegible] ورأس مال ، وهامة [illegible] ، وكرم مثل كرم الملوك ، وصوت فيه رقة [illegible] وقوة الحق ، وهو عندي أجدر بالإجلال منكم ، وأحرى بالإعجاب من أمثالكم ، ولا أنه من العرب الذين [illegible] وأوقعوا بكم الهزيمة » .

واستحق قولها مع رجل مجرب [illegible] أن زكته أشهد المرأة ، فقالت له متجهمة مختصة : هذا هو في الزقاق ، إذا استطعتم لقاءه ، ونحن أتمم على زاله ، وهو وحيد ليس معه من يشد أزره . ونظر الرجل إلى قومه وقال : إني لأخشى المرأة لا تخدعني ، فهو إليه فإنها فرصة وهو وحيد . وأقبل الرجال يعدون بعد التردد ، ويسكتون عضبا بعد التضاحك والسخرية ، وأسرعوا إلى الزقاق يحثون السير ، حتى لاح لهم من بعيد بين المنازل ، فحاصروها وتعقل في ثغورها .

وفهم عبد الله موقفه ، وأدرك بفطنته موضع يده على سيفه ، وهجم بعومهم رابط الجأش ، مطمئن الخطو ، وعلت وجهه بسمة الجد ، وامتلأ قلبه بالحقيقة ، واستعد للقتال . وأحاطوا به مترددين ، ثم صاح أحدهم : هذا هو ابن قيس إنه هو الذي طالما غزانا في أطراف هذا الساحل ، وأوقع بنا الهزيمة بعد الهزيمة . والتف عليه الجمع الغاضب من كل مكان ، وأصبح في وسطهم كالأسد الصائل ، لا يعتمد إلا على سيفه ، ولا يستمد إلا من جراءة قلبه . وصاح صيحته الرائعة ، وجعل يهوي بسيفه على من يقدم عليه ، فيجندل الرجل منهم بعد الآخر ، وهو يناورهم ويحاورهم ، حتى أثخن جماعة من خلفه ، فضربوه بجراحة ، ثم تسابقوا عليه الحلقة وجعلوا ينهشونه بسلاحهم ، وهم في حذر أن يقربوا منه ، حتى أنهكه القتال قوته ، ووقف وقاوم ، وخر صريعا وهو باسم الثغر . وكانت آخر كلماته أن تمتم بصوت خافت يشكر الله على أن جعل لقومه فداء ، وأنه استجاب دعوته بالعافية في أصحابه . ولكن جثته التي سالت على الزقاق كانت أول الفتح ، وبقي جسده في تلك الأرض مستقرا ، فكان طليعة لمن بعدها ، وهي اليوم أمنع معاقل الإسلام وأحفل مفاخره .

محمد فريد أبو حديد

الصورة المواجهة لهذه الصفحة

[illegible] بهرام يقتنص [illegible] في الصيد

[illegible] مخطوطا من كتاب « خمسة » نظامي ، محفوظة في متحف نيويورك . وترجع هذه الصورة إلى القرن الخامس عشر الميلادي . وتمثل بهرام جور ملك إيران يثبت لحبيبته فروسيته ومهارته في الرماية فيثبتها إلى ما طلبته منه : وهو أن يخيط بسهم واحد حافر الوحش بأذنه . وقد توصل إلى ذلك بأن صوب على الوحش في أذنه قطعة من الطين خلال الصيد ، فرفع الحمار حافره ليحك أذنه من أثر الضربة ، فرماه بهرام جور بسهم ثبت به حافره وأذنه . وترى هذه القصة مصورة في كثير من المخطوطات الإيرانية وعلى التحف الخزفية والمعدنية وعلى المنسوجات وغير ذلك . ونلاحظ في هذه الصورة ما اكتسبه الإيرانيون من فنون الشرق الأقصى من دقة رسوم النبات والحيوان ومن موضوعات زخرفية أخرى ، ولاسيما رسم الحيوانات التي يحيط بها الخطوط ، وأن نسبي الحيوانات والأشجار ، وأن بعضها متأثر بالطراز الصيني الذي كانت تتبعه المصورين في الصين . ومن الممتع ان يشار إلى أعمال هذه الصورة إلى البساطة ، ولكنها لا تحرم صحة نسبتها إلى هذا العصر الإيراني الفني ، والمعروف أن الصانعين قد نسبوا إليه كثيرا من الصور إعلاء لشأنها .

زكي محمد حسن

بخلاء الجاحظ

وبخيل «موليير»

بقلم الأستاذ شفيق جبري

لم يبعد الجاحظ في أدبه عن مشاهد الحياة العامة ، فكأنه دخل في «بخلائه» دور طائفة من الناس ، فعاش مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، وخالطهم في تدبير منازلهم ، لم يفته شيء من أساليبهم في الطبخ والأكل والخبز والملح والاستصباح والاستخدام وما شابه ذلك ، وكأنه شاهد كيف يتداولون في السؤال عن الدجاجة ، وكيف يطبخون الشاة فلا يضيعون جزءاً من أجزائها ، وكيف يأكلون بالأرغفة ، ويفعلون بالسكر ، ويرمون هذا الطعام بالشكة ، ويتركون الجوش ... الكراء والشراء ، ونحوهما ، وكلمات المدح ... والمواعين مادة أدبه ، لم يتحرز في هذا الأدب من ... أنفه من روائح اللحم والتوابل والسمن والخل والثوم ، أو من روائح السكباج والطباهج وغير ذلك

وليست هذه الأمور وضعها إلى ... ولا حصرها ، ولكن الاستقصاء في ذكرها أمر عسير ، فالجاحظ قد دخل من كل باب ، وجرى مع كل ريح ، ولكنه لم يدخل من هذه الأبواب كلها إلا ليخرج منها بملحة طريفة ، أو بنكتة لطيفة ، أو بنادرة عجيبة

تحول الجاحظ في «بخلائه» إلى عيب مشهور ، وهو البخل ، فبسط لنا نماذج كثيرة من البخلاء ، وبيّن كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وكيف يلبسون ، وكيف يدخرون ؛ إلى غير ذلك من الصور الظاهرة التي تضحك القارئ قبل كل شيء ... حتى يكاد هذا الإضحاك يصرفه عن معرفة خصائص البخل

وإذا رجعنا إلى الموازنة بين أساليب الجاحظ في وصف أمثال هذه العيوب ، وبين أساليب بعض الإفرنجة ، تبين لنا أننا نحتفل في أدبنا بالظواهر ، وأنهم لا يكتفون بالظواهر وحدها ، فيتسربون إلى البواطن

من طرائف بخيل الجاحظ أنه يلاحظ اللقمة مثلاً ، فإذا انتهى أكل هذا البخيل أكلته ، واستقر كل مهموم فيه ، ومغموم ... ، استلب البخيل من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي ، وانحدار العقاب . فقد صوّر الجاحظ حركات العين ، كيف تلاحظ اللقمة ، وحركات اليد كيف تستلب هذه اللقمة من الآكل ، أو كيف تكلفه كلفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً .

هذه صورة ظاهرة تقتصر على نوع واحد من الحركات ، حركات العين أو اليد أو أمثالها ، ولكنها هل تدلنا على حركات النفس ؟ ... بخيل الجاحظ عنها ، غير ... إنما هو بخيل كل العصور وكل ... يطبع عليه البخل في أي عصر كان ... ؟

هذا سؤال يسهل الجواب عنه ، إذا وازنا بين وصفنا عيوب النفس ، وبين وصف الإفرنجة لهذه العيوب ، وما الغاية الاستقصاء في هذه المقارنة ، وإنما الغاية التنبيه على أمر واحد ، وهو أننا نهتم في معظم أدبنا بالظواهر ، ويهتم الإفرنجة بالبواطن ، وقد نبرع في الاهتمام بهذه الظواهر براعة عجيبة ، لأن كل حكاية من حكايات بخلاء الجاحظ قد تكون موضوع رواية في ذهن كاتب من كتاب الإفرنجة ، فهذا أثر التعمق في ظواهر البخيل ، سواء أكان هذا البخيل يطبخ شيئاً ، أم يؤجر داراً ، أم يوصي ولداً ، أم يعلم صبياً ، أم يسرج مصباحاً ، ولكنه هل أثر التعمق في بواطن البخيل ؟ لا شك في أنه عرف أسرار البخلاء ، وعرف دخائلهم ، ولكنه هل صور حركات هذه الدخائل ؟

إننا لا نعرف هذا كله إلا إذا قابلنا بين بخيل الجاحظ وبخيل كاتب من كتاب الافرنجة ، كبخيل « موليير » وسنكتفي في هذه المقابلة لا نلجأ إلى شيء من التوسع .

لقد مثّل « موليير » في بخيله نموذج البخيل الحقيقي ، فلم تقتصر روايته على تصوير ما يساور صاحب المال من قلق ، ولكنها صورت البخل في كل ما يشتمل عليه من سخرية وكراهية وفظاعة ، فلم نجد بخيل « موليير » البخيل القديم الذي يكنز دفينه ، وإنما هو بخيل متوثّب ، يقرض ماله ، ويفرط في الربا ، فهو مراب عصري يثمّر ماله حتى يكاد حب الربح يسلبه ولب الأديب !

أما الجاحظ فلم يظهر في « بخلائه » أثر السخرية والكراهية والفظاعة ، ومعنى هذا أنه لم يصور البخلاء في صور تجعلهم ضحكة للناس ، أو في صور تبغضهم إلى الناس ، أو في صور يستفظعهم فيها الناس ، فقد [illegible] الإنجاف [illegible] كل شيء ، حتى إنه [illegible] لا يصور لنا كل شيء ، ولا يأتي له [illegible] وعلى حقائقه ، ولكن يحكي بعض [illegible] القارئ رأى الحكاية بعينه ، لأن بعض هذه الحكايات لا تطيب جداً إلا إذا رآها بعينه ، فلم يكن بخيله عالمياً ، أي بخيل كل العصور وكل البلدان ، فقد أهمل تصوير قلق البخيل وتصوير ما يولده في الناس من سخرية وكراهية وفظاعة ، وإذا كنا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذي يضحكنا مظاهر البخل ذاته ، لا صورة البخيل ، ولا حركات نفسه .

وإذا أردت أن تعرف صورة البخيل الحقيقي ، بخيل كل العصور وكل البلدان ، فانظر إلى بخيل « موليير » فهو لا يريد أن يرى خادم ابنه منتصباً في داره كالرمح ، يلاحظ ما يقع في هذه الدار ، وهو لا يريد أن يرى أمامه جاسوساً تلاحظ عيناه اللعوبتان أعماله وتأخذان ما يملكه وتدوران في كل جهة لعلهما تريان شيئاً يمكن اختلاسه .

هذه صورة البخيل الحقيقي ، إنه يخاف كل شيء ، ويسيء الظن بكل شيء ، فهو دائماً في قلق واضطراب ! إن خروج الخادم من عنده فتشه ، وظن أنه قد سرق له شيئاً ، مرة يفتش يده اليمنى ومرة يده اليسرى ، ومرة يفتش اليدين ، ثم يفتش القميص ، ثم يفتش الجيوب ، إلى آخر هذه الحركات التي تدلك على حركات نفس البخيل فهو يعتقد أن كل البشر يسرقون ماله !

والجاحظ قد تغلغل إلى خبايا نفس البخيل البعيدة ، مثل تغلغل « موليير » وعرف مراميها الدقيقة مثل معرفة « موليير » ولكنه لم يعرض علينا هذا القلق الذي ينتاب البخيل ، وهذه الشقاوة الباطلة التي يشقاها في الخوف على ماله ، فهو يخاف كل شيء حتى هذه الصناديق التي يكنز فيها ماله ، فلا يثق بها ولا يطمئن إليها ، لأنها قد تسرق له [illegible] أن تستودعها إياه ! فهو يكتم أهله ماله ، ويظهر [illegible] فيه ، فهم في نظره أعداء له ، [illegible] ، ويكتم الناس ماله حتى لا يهجموا عليه وحتى لا يقتلوه ولا يسلبوه !

قد تتفق العبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الافرنجة في وصف بعض حالات ظاهرة ، فبخيل « موليير » لا يريد أن يرى شيئاً من البذخ والتبذير ، فإذا رأى على ابنه لباساً فاخراً لامه ووبخه . ومثل هذه الحالات الظاهرة كثيراً ما نجدها في بخلاء الجاحظ ، وربما كان الجاحظ أوفر صوراً من « موليير » في هذا الفن .

ولكن الجاحظ لم يتعمق في الكلام على حركات البواطن تعمقه في الكلام على حركات الظواهر ، فإن بخيل « موليير » إذا سمع في منامه كلباً ينبح ، سبق إلى ذهنه أن هذا الكلب ينبح لأنه رأى لصوصاً هجموا على الدار ليسرقوا ما فيها ، فهو ذو تفكرات لا تنقضي ، إنه خائف على ماله ، مشغول البال بهذا المال !

أجل ! لقد تتفق العبقريتان في تصوير الحالات الظاهرة ، فمن جملة هذه الحالات أن بخيل « موليير » وبخلاء الجاحظ لا يعرفون كلمة « خذ » ولكنهم يعرفون كلمة « هات » ومن جملة هذه الحالات أنهم يخافون على أثاث البيت من أن تمتد إليه الأيدي ، ويحذرون الناس من فرك الثياب حتى لا تخرق ، ومن مسح الأواني حتى لا تنكسر ، ولا يريدون أن يكثر الضيف من الأكل ، فالإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل ، فهذه حكمة يريد بخيل « موليير » أن يكتبها بمداد من ذهب على مدخنته .

قد تتفق العبقريتان في هذا كله ، ولكن الاختلاف يشتد في تصوير حركات النفس ، وفي تصوير قلقها واضطرابها وجنونها ، فإن بخيل « موليير » سُرق منه مال طار عقله ، فأخذ يصرخ هذه الصرخات الخالدة في تصوير حالة البخيل النفسية : « السارق ! القاتل ! العدالة ! لقد ضعتُ ! لقد قُتلتُ ! [illegible] مالي [illegible] أين السارق ؟ أين يكمن [illegible] أهو هنا ؟ أهو هناك ؟ » ويبلغ به الهوس [illegible] فيه أنه سرق نفسه ، فيقبض على ذراعيه ، ثم يدرك هذا ، فيصرخ : اضطرب فكري ! إني أجهل من أنا ، وأجهل أين أنا ، وأجهل ما أعمل ، إلى آخر هذه الصيحة الخالدة في رواية « موليير » .

قد يصعب عليّ أن ألخص في سطور آيات الجاحظ في بخلائه ، وآيات « موليير » في بخيله ، فما قصدت الاستقصاء في هذا الباب ، ولا قصدت الموازنة بين الكتابين ، وإنما تصديت للموضوع من وجه واحد ، فقد أحببت أن أبين الفرق بين الأدبين ، أدب العرب وأدب الإفرنجة من حيث تصوير ظواهر النفس وبواطنها .

لقد قصد « موليير » إلى سخرية البشر ، فصوّر على المسرح عيوب الناس ، وكان يؤلمه أن يصيحوا بأنه في التصاوير التي صوّرها كان يرسم واحداً من أهل عصره ، وبدعايته كانت تصوير الأخلاق دون الالتفات إلى رجل بعينه ، إن الصور التي عرضها إنما هي صور خيالية لا تمثل رجلاً حقيقياً . أما الجاحظ فقد التقط في بخلائه أحاديث أصحابه وأحاديثه وما رآه بعينه ، فمنهم الصديق والرفيق ، ومنهم المستور والمشهور . وكان يؤلم « موليير » أن يرى وجه شبه بين صورة يعرضها على المسرح وبين صورة رجل من عصره ، لأن غايته كانت تمثيل العيوب بوجه عام ، وخاصة عيوب عصره ، وعلى هذا كان يعسر عليه أن يصوّر صورة من دون أن يجد لها في عصره رجلاً يوافقه .

فالجاحظ لم تكن غايته تصوير البخل بوجه عام ، فبخيل الجاحظ لم يكن خيالياً ، فقد يجمع هذا البخيل طائفة من صفات بخيل كل العصور وكل البلدان ، ولكننا لا نرى عليه آثار القلق وشغل البال ، فلم يصوّره الجاحظ [illegible] صورة الساخر [illegible] منه ، ويكرهه ، ويستثقله .

[illegible] أمور [illegible] شيء ، فإنما يجوز هذا الطراز من [illegible] كشف الغطاء عن حركات النفس [illegible] من حركات اليد والعين !!

شفيق جبري

مقتطفات

تاريخ العالم في صورة مصغرة جداً

يرسم الجغرافيون مساحات شاسعة من الأرض في خرائط دقيقة مصغرة آلاف المرات، وهم بهذا يطوون الأرض الواسعة وينشرونها أمام الرائي في صفحة من كتاب، فينتقل الإنسان على الأرض من قارة إلى قارة ومن قطب إلى قطب دون عناء.. لأن كل بوصة في الخريطة تعادل ألف ميل مثلاً.. وهكذا

وقد خطر لأحد أساتذة التاريخ في أمريكا أن يصغر تاريخ الدنيا على هذا الغرار، ويجعل مقياس التصغير .... أي أن كل يوم في حسابه يعادل [illegible] من الأيام في سيرة الإنسانية الطويلة، وكل [illegible] مليوناً من الأعوام وهكذا، وقد انتهى [illegible] يجعل تاريخ الحضارة البشرية مليوناً من الأعوام [illegible] أن يجمع أهم الحوادث في عام واحد — وليكن العام الماضي مثلاً.

وإليك نتيجة تجربته التي لا تخلو من فكاهة:

فمنذ عام انقضى عرف الإنسان كيف يستخدم قطعاً غير مهذبة من الأحجار وعصياً غير مستطيلة للدفاع عن نفسه أو للحصول على طعامه، وظل الحال على ذلك طوال هذه السنة حتى قبيل بدء الأسبوع المنقضي فقط: ففي أوائله استطاع الإنسان أن يهذب الأحجار ويشكلها وفق حاجته، ولم يستطع الإنسان أن يرسم صوراً تعبر عن أفكاره إلا أمس الأول فقط، وتمكن من اختراع الأبجدية البارحة، واكتشف في فجره البرونز وأحسن استعماله، وفي ظهر الأمس اجتهد اليونان في صقل فنونهم وعلومهم، وفي منتصف ليلة أمس سقطت روما، وغرقت الدنيا في الدجى بضع ساعات، وفي الساعة الثامنة والربع من صباح اليوم اخترع جاليليو منظاره، ورأى به الكون وأعلن نظرياته بعد ذلك ببضع ثوان، وفي الساعة العاشرة ظهرت في الوجود أول آلة بخارية، وفي الساعة الحادية عشرة أعلن فولتا نظرياته في الكهربائية [illegible]، وبعد ذلك بما لا يزيد عن نصف ساعة ظهر التلغراف ودرس الناس القوة الكهربائية، وفي أعقاب ذلك ظهر التليفون والمصباح الكهربائي، وحوالي الساعة الثانية عشرة إلا ثلثاً تسامع الناس باكتشاف رنتجن لأشعته، ولم تنقض دقائق حتى ظهر الراديوم واللاسلكي، ومنذ ربع ساعة فقط اخترع الإنسان السيارة، ومنذ عشر دقائق فقط انطلق الإنسان في الطيران ونقل به البريد، ومنذ نحو دقيقة واحدة فقط طلع علينا الراديو فنقل إلينا الأصوات من بعيد!...»

هل غير موسوليني رأيه؟

[illegible] كان موسوليني قد أعد كتاباً عن جون هوس [illegible] البوهيمي المعروف، الذي أحرقه رجال الكنيسة عقاباً له على ما ذاع من آرائه، فاعتبرت إذ ذاك إلحاداً وخروجاً على الدين، فقال في مقدمته: «وإني لأرجو — وأنا أقدم بهذا الكتاب إلى جمهور القارئين — أن أثير في نفوسهم كل عواطف الكراهية والاحتقار للاستبداد والمستبدين...»!

فماذا ترى يكون رأي موسوليني في ذلك الكلام؟

روزفلت وانتخابات الرياسة المقبلة

تنتهي رياسة الرئيس روزفلت في أكتوبر سنة ١٩٤٠ أي أن أمامه الآن سنتين إلا قليلاً، ولكن الأمريكيين يستعدون من الآن للمعركة الانتخابية القادمة التي يبدو أنها ستكون أعنف وأشد معركة قامت في الجمهورية الأمريكية للحصول على منصب الرياسة، ولعل السر في ذلك التفكير

فى الاستعداد إنما هو قلق الأمريكيين على مصيرهم بتأثير ما يرون من اضطراب الحالة السياسية فى العالم كله ، وخوفهم من مطامع الدول الأخرى كاليابان وألمانيا ، فالأولى لا تخفى مطامعها فى المحيط الهادى ، والثانية تجتهد اجتهاداً ظاهراً فى أمريكا الجنوبية ، ولا تفتأ تفاجىء الأمريكيين بالعداوة والإجهال ، وقد تعرضت التجارة الأمريكية خلال السنوات القليلة الماضية لنافسات شتى فى جميع النواحى ، فظهرت مشكلة البطالة بصورة مقلقة وعم الكساد الدوائر الصناعية والإنتاجية الأمريكية ، ومن ثم جاء قلق الأمريكيين ، وزاد اهتمامهم بالسياسة بعد أن كانوا — لشدة انصرافهم إلى العمل ووفرة الأرباح — لا يحفلون بالسياسة ولا يعنيهم أمرها كثيراً ، ولهذا لا تكاد تفتح صحيفة أمريكية حتى تطالعك فيها مظاهر الاهتمام بالسياسة ، فمن دراسة للمشاكل العالمية ، إلى الاهتمام بعصبة البرود ، إلى مهاجمة الدكتاتوريات ، إلى نقد سياسة الحكومة الأمريكية ، إلى غير ذلك .

ويختلف الأمريكيون اختلافاً عظيماً فى شأن رئيسهم الحالى ، فهذا أنصار يرون أن إنقاذ الشعب الأمريكى معلق بهمة ذلك الرجل ، وآخرون لا يترددون فى اتهامه بإفقار لصغير البلاد من سوء سياسته ، ولكنهم جميعاً يتفقون على أنه رجل طيب القلب حسن النية قويم الخلق ، وربما عزا بعضهم أخطاءه أو انحرافه عن الصواب إلى سوء بطانته ومساعديه .

لهذا رأت مجلة Life الأمريكية أن تعرف رأى قرائها فى الرئيس الحالى ، فطرحت بينهم استفتاء شاملاً عن :

١ — أغراض روزفلت الاقتصادية .

٢ — أساليبه التى يتخذها لبلوغ هذه الأغراض .

٣ — شخصيته .

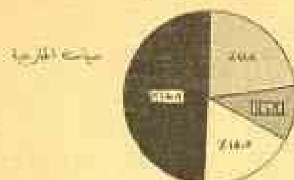
٤ — معاونيه .

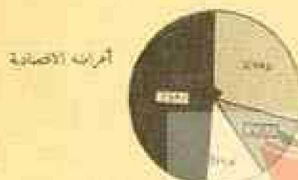
٥ — سياسته التشريعية .

٦ — سياسته الداخلية .

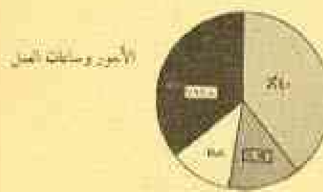
٧ — تشريعه الخاص بالأجور وساعات العمل .

وإليك النتيجة موضحة برسوم بيانية نقلاً عن هذه المجلة :









تدل هذه الدوائر البيانية على نصيب الرئيس روزفلت وأعماله من تقدير الأمة الأمريكية :

فاللون الأسود يدل على نسبة الأنصار .

واللون الأبيض يدل على نسبة الخصوم .

واللون الرمادى الفاتح يدل على جمهور المحايدين .

واللون الرمادى الثقيل يدل على جمهور الذين لم يبدوا رأياً .

في التربية وعلم النفس :

عهـــد ومنهاج

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

عميد معهد التربية ورئيس رابطة التربية الحديثة

عهد إليّ صديقي الأستاذ أحمد أمين أن أتولى موافاة «الثقافة» بمباحث في التربية وعلم النفس ، وذلك بحكم اتصالي بطائفة من المشتغلين بها في معهد التربية وفي رابطة التربية الحديثة ، فقبلت عن طيب خاطر ، لأن آراء هذه الطائفة من العلماء ، والكثير من مباحثهم ، لا ينبغي أن يظل محصورا في دائرتهم ، حبيسا بين جدران معاهدهم وأمكنة اجتماعاتهم ، أو مدونا في [illegible] الخاصة بحث ؛ بل يجب أن يذاع في الناس عامة والمثقفين خاصة ، فهو متصل بالحياة في صميمها ، وبالإصلاح الاجتماعي الذي قامت طوائف عدة تنشده وتعمل له بشتى الوسائل . وبحوث التربية وعلم النفس أهم ما يجب أن يتخذ أساسا لجهود العاملين في هذه الحركة النافعة ، والقائمين بهذه النهضة المباركة .

وأريد أن أبين لقراء هذه المجلة أن الغرض المقصود من هذا الباب ، هو بسط أحدث الآراء والأساليب والمباحث والمذاهب في التربية وعلم النفس ، وشرح ما ينطوي تحت ذلك من أسس ، وما يقصد إلى تحقيقه فيها من أغراض ، بلغة سهلة وأسلوب عملي واضح ، من غير دخول في دراسات نظرية طويلة ، أو جدال في مسائل عويصة ، بل سيقتصر دائما على ما يشعر كل قارئ مثقف بحاجته إليه ورغبته في الاطلاع عليه .

فالآباء والأمهات يهمهم أن يعرفوا كيف يربى أبناؤهم وبناتهم ، وأن يفهموا ذلك ما هو متبع في تربية الأبناء والبنات عند غيرنا من الأمم ، وهم يسمعون عن التربية الحديثة ، ويريدون أن يعرفوا الكثير عنها ، ويتبينوا ما هو صالح للاقتباس منه في مدارسنا المصرية لكي يطالبوا أولي الحكومية عند أخذها ببعض تلك الأساليب الحديثة إذا فعلت ذلك ، أو يطالبوها به إذا هي قصرت عنه . كما يود الجميع أن يتبينوا إن كانوا على حق في الأساليب التي يتبعونها في تنشئة أولادهم وبناتهم في المنزل ، وهم يرحبون بكل مشورة نافعة من هذه الناحية . والمباحث الجديدة في التربية وعلم النفس تلقي ضوءا كثيرا في هذا الاتجاه .

هذا إلى أن النجاح في هذه الحياة متوقف على تنمية مواهب الإنسان ، وحسن استغلالها في حياته وأعماله [illegible] وهو يتوقف إلى حد كبير على إحسان معاملته للناس [illegible] والأخذ والعطاء . ولن يتسنى للإنسان ذلك كله ، إلا إذا فهم إلى حد ما طبيعة العقل البشري وعقلية من يتعامل معهم في الحياة ، أفرادا وجماعات ، فيكون سلوكه معتمدا دائما على أسس علمية صحيحة تفضي به إلى النجاح الذي ينشده . وليس أجدى على الإنسان في هذا السبيل من مباحث علم النفس .

وقد بدأ هذا العلم يتطور في أواخر القرن التاسع عشر وصار في القرن العشرين علما عمليا تجريبيا ، بعد أن كان علما نظريا ؛ وقد تغلغل الآن في حياتنا اليومية تغلغلا عميقا ، وآمن الناس بفائدته على اختلاف طبقاتهم وأنواعهم ، ومهما تباينت أعمالهم وحرفهم . فلم يعد المدرس وحده هو الذي يحتاج إلى دراسته ، وإنما يحتاج إليها التاجر والطبيب والأديب والكاتب والسائل والقاضي والمحامي ، والمصلح الاجتماعي ، وغيرهم .

وعلماء التربية وعلم النفس عليهم واجب آخر ، هو المساهمة في بحث المشاكل الاجتماعية التي تضطرب في بيئتنا المصرية والتي يجب على المثقفين من المصريين أن يتعاونوا على إيجاد حلول جيدة ناجعة لها . وهذه المشاكل كثيرة وبعضها قد تناوله الباحثون ، وإن لم يصلوا فيه إلى نتائج علمية قيمة ناجعة ، والبعض الآخر لم ينل بعد القسط اللازم من العناية والدرس .

فمثلا يتصرف أكثر الناس في المسائل التي تعرض لهم في حياتهم الاجتماعية وفي حياتهم الخاصة طبقاً للتقاليد وعلى النسق الذي ألفوا آباءهم وأمهاتهم يتصرفون عليه ، دون أن يفكروا تفكيراً شخصياً قد يهديهم إلى تصرفات أدنى إلى الصواب وأقرب إلى الحكمة . فكيف يتسنى لنا أن نحفز الأفراد إلى التحرر من التقليد وإلى إعمال الفكر واستخدام العقل باستمرار ، حتى تقوى [illegible] وتظهر شخصية الأمة [illegible] الثروة الفكرية [illegible] طابع قومي قوي ؟

كذلك يشعر المشتغلون بالتأليف والنشر في مصر بأن الرغبة في المطالعة والإقبال على الكتب ضعيف إلى حد كبير . فبينما نجد أفراد الشعب جميعه في كل أمة متمدنة يقرءون باستمرار ، نرى عدد المواظبين على المطالعة هنا قليلا جداً . فالإنسان إذا ركب سيارة عمومية أو تراماً أو قطاراً في أوربا لا يكاد يعثر على شخص من الراكبين لا يقرأ في كتاب أو في مجلة أو رواية ، أو على الأقل في جريدة ، وهذا هو السر في أن المعلومات العامة عند الأوربيين واسعة المدى ، وإليه يرجع السبب في ارتفاع مستوى أحاديثهم في مجتمعاتهم العامة والخاصة . فما السبيل إلى بث تلك الروح القوية التي تحفز إلى المطالعة وتخلق الاهتمام بالمطبوعات الجديدة والرغبة في اقتنائها واستيعابها ، وتكوين رأي ناضج فيما حوته من آراء وتجارب ؟

وشبابنا ، أليسوا أميل إلى الطراوة منهم إلى الفتوة ، وإلى المزاح منهم إلى الجد ، وإلى السكون منهم إلى الحركة ، وإلى التواكل منهم إلى المثابرة ؟ أو ليست التبعات التي ألقيت على الجيل القادم بعد أن تغير الوضع السياسي للبلاد تستلزم أن يتحول الشبان تجاه الحياة العملية المقبلة ، ويأخذوا نصيبهم من الخشونة والعمل الذي يتطلب صبراً واحتمالا وجهداً ؟ فذلك هو الذي يخلق منهم الرجال الأشداء ذوي العزم والإرادة والطموح ، مما يجعلنا نطمئن لمستقبل البلاد في كنفهم حين تؤول إليهم مقاليد أمورها .

وهناك ظاهرة قومية أخرى تجب العناية بمعالجتها ، وهي عنف العاطفة عندنا ، في الحب والكره والفرح والحزن ، والتطرف فيها إلى حد كبير . فكيف نعالج العاطفة حتى تصبح [illegible] ؟

وهناك مشكلة تعليمية على جانب من الأهمية ، [illegible] أطفالهم ، ففريق يحجزهم في البيت إلى [illegible] السادسة ، ثم يبعث بهم إلى روضة الأطفال أو إلى المدارس الأولية ، وفريق آخر يبعث بهم إلى المدارس في سن مبكرة ، في الرابعة أو قبلها ، فإذا أبت عليه الروضة القبول ألح واستشفع حتى يقبل الطفل ، أو يبعث به إلى المدارس الأجنبية . ولكل فريق حجته ، فأي الفريقين على صواب ؟

كل تلك المشكلات وأمثالها الكثيرة تتطلب الحل ، ولا بد لمن يتصدى لحلها أن يلم بالتحليل النفسي وبنفسية الجماعات أو بعلم النفس الاجتماعي ، وبأساليب التربية عندنا وأساليبها عند غيرنا ، ممن وفقوا إلى حل مشاكلهم الشبيهة بمشاكلنا . ولا بد أن تبنى الحلول على تجارب شخصية قوية وتدعم بإحصائيات شاملة مقنعة ، وذلك ما نستهدف السبيل إلى تحقيقه في هذا الباب . والله الموفق الهادي

أحمد عبد السلام الكرداني

تين وفلسفة الفن

Taine

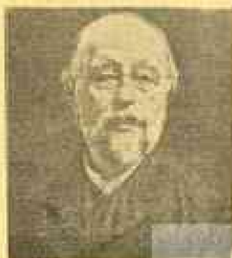
للدكتور زكي محمد حسن
أمين بدار الآثار العربية

ليس الكلام في نشأة الفن وفي فلسفته مما أثاره العلماء والكتاب في العصر الحديث فحسب ، بل نال الإغريق في هذا الميدان قصب السبق . ولا غرو فقد كان للفن عندهم شأن عظيم ، فقام فيهم أرسططاليس أول كبار المفكرين في الفن . ثم تبعه في مراحل التاريخ كثيرون من الفنانين والفلاسفة والعلماء ، حتى جاء منتصف القرن الثامن عشر وكتب جوتهولد لسنج Gotthold Lessing مؤسس الأدب الألماني الحديث بحثاً في النقد وفلسفة الفن سماه « لاوكون » Laocoon وهو اسم المجموعة الحجرية المحفوظة في الفاتيكان والتي تمثل لاوكون كاهن أبولو في طروادة وهو يناضل مع ابنيه الموت عن بعد حين (انظر شكل ٢) .

وتوفي لسنج عام ١٧٨١ ، ولكن تلك الرسالة التي كتبها في الفن كانت مصدراً لاشتغال غيره بهذا الموضوع ، غير أن الجهود المبذولة لم تكلل بالنجاح ولم يقدر لها أن تحيا الخلود حتى قام هيپوليت تين Hippolyte Taine في منتصف القرن التالي .

ولم يكن تين آخر من كتب في فلسفة الفن . فليس ما يكتب عن فلسفة الفن في أي عصر من العصور أبقى على الدهر وأدوم من الفن في ذلك العصر . وكما أن الفن يتطور فإن الآراء فيه تتطور أيضاً . ولذا فإن كثيراً من آراء أرسططاليس أو لسنج أو تين تبدو لنا اليوم عقيمة غير مجدية ؛ وسوف تبدو بعض نظرياتنا الفنية الحالية عقيمة لمن يدرسون الفنون في الجيل القادم .

ولكن بالرغم من ذلك كله فإن جل ما كتبه تين Taine في فلسفة الفن لا تزال له قيمته . ولعل السر في ذلك بساطته وأسلوبه ومنطقه ، الذي يشبه في بعض الحالات العمليات الحسابية وقوانين الطبيعة ، فصحيح هذا المنطق من أسباب ما نراه الآن من عقم بعض نظرياته .



(الشكل ١) هيپوليت تين

ولد تين في إحدى المقاطعات الشمالية بفرنسا سنة ١٨٢٨ ، وكان في دراسته طالباً ممتازاً ، يعجب أساتذته (١٨٤٨) بتفوقه في التاريخ وفي الآداب القديمة . وانتظم في سلك مدرسة المعلمين العليا بباريس ، ونال إجازة الدكتوراه سنة ١٨٥٣ ، واشتغل بالتدريس في مدرسة الفنون الجميلة وفي الكلية الحربية . وأصبح من أشهر أعلام الأدب والفلسفة في عصره ؛ ولكننا لا نريد أن نعرض هنا لآرائه الفلسفية أو مقامه في عالم الأدب ، وإنما نود أن نعنى بما كتبه في تاريخ الفن . فالمعروف أنه صنف بين عامي ١٨٦٥ و ١٨٦٩ أبحاثاً جمعت بعد ذلك وطبعت سنة ١٨٨٠ في كتاب من جزءين اسمه « فلسفة الفن » Philosophie de l'Art ، بدأ الكلام عن طبيعة القطعة الفنية ، وأنها ليست مستقلة ، بل هي جزء من مجموع منتجات الفنان الذي أخرجها ، لأن جل هذه المنتجات تحمل بين ثناياها أوجه شبه كأنها إخوة لأب واحد ؛ فلكل فنان أسلوبه ، ولكل مصور أو نقاش ألوانه المفضلة

تمثال الكاهن لاوكون وولديه وهو من عمل ثلاثة نحاتين من جزيرة رودس في القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد، وهو محفوظ الآن في متحف الفاتيكان. وقد كان هذا التمثال في عصر النهضة أروع الأمثلة في فن النحت الإغريقي؛ ولكن ما كشف عنه بعد من تماثيل العصر الإغريقي جعل روعة هذا التمثال موضع شك في تقدير الأثر الجميل والروعة التي تبدو في الكاهن وهو يقاتل الموت ويرى عبر رأسه مصرع ولديه دون أن يستطيع أن يدفع عنهما أو عن نفسه شر الحيتين القاتلتين!

وسمات أشخاصه ووجوههم، والأوضاع التي يحبها، وطريقته في تكوين القطعة الفنية، وبعد فالفنان بالكل ليس مستقلاً، بل إنه منطوٍ تحت مجموعة أخرى: هي المدرسة التي ينتمي إليها.

ويسعى باحثنا في هذا المجال فيسوق الأدلة ويجمع الأقيسة ليصل إلى أن الآثار الفنية نتيجة طبيعية للحالات العامة التي تسود في الإقليم والعصر اللذين تظهر فيهما هذه الآثار الفنية. وأخطر هذه الحالات العامة شأناً هي المناخ والطقس والبيئة والدين والمدنية والعادات. ولو أردنا أن نفسر ميزة من مميزات أي فن في عصر من العصور وجب علينا أن ندرس تلك الحالات لدى القوم الذين ظهر لديهم هذا الفن في ذلك العصر.

ولقد قرن بين هذه العملية وما يستطيعه عالم النبات من تفهم مميزات الأقاليم المختلفة ومعرفة أي أنواع النبات تنمو فيها، إلا إذا درس تربتها ومناخها وتعرضها للشمس. ومن ثم فقد قال بعض الكتاب عن نظريات تين إنها التاريخ الطبيعي للفن. وبالرغم من أن هذه النسبة قد تحمل في ثناياها شيئاً من التحكم، فإن الأمثلة التي يسوقها تين في مقالاته للدلالة على صحة نظرياته، تحملنا على أن نؤمن بها إلى حد كبير، ولا سيما إذا لم تتدخل عوامل أخرى تجعل تطبيقها غير سديد، كما سنشير في ختام هذا المقال.

ولا يخلو من الشطط البحث أن مدرسة التصوير الهولندية ازدهرت في العصر الذهبي الذي نهضت فيه هولندة خلال استقلالها من الأسبان، ثم تجارب انجلترا وتصبح أغنى البلاد الأوربية وأوفرها حرية وأرقاها صناعة!! والأعجب ما نرى المدرسة المذكورة تضمحل في القرن الثامن عشر حين تترك هولندة المكانة الأولى لانجلترا وتصبح دولة لا أثر لها ولا مطامع!

ألا يكون هذا مبرراً لأن ندرس «درجة الحرارة» الاجتماعية والأدبية والنفسية لنفهم ظهور الطرز المختلفة في الفنون كما ندرس «درجة الحرارة» الطبيعية لنفهم أنواع النباتات التي تنمو في إقليم من الأقاليم؟

واضمحلال النحت والتصوير في العصور القديمة من خير الأمثلة التي يضربها تين لبيان تأثير البيئة؛ وحسبنا لتبين هذا الاضمحلال أن ندرس الصور والتماثيل والفسيفساء في بومبي Pompéi ورافنا Ravenne. وهي في الأولى من القرن الأول بعد الميلاد؛ أما الفسيفساء في رافنا فترجع إلى عصر جستنيان في القرن السادس. ولا شك أن الفن في فترة القرون الخمسة قد تطرق إليه فساد، بمقدار البعد عن تقليد الطبيعة وفي المبالغة [illegible] الجسم وإبرازها إبرازاً دقيقاً على النحو الذي اعتدناه في الفن الإغريقي القديم. ولا [illegible] والعادات الإغريقية القديمة لا [illegible] الميلادي. وكان القوم يعنون بالألعاب الرياضية [illegible] الجسم الإنساني، ويتحرون الأجسام التي تبدو فيها الصحة والجمال، ويرون الشبان والشابات في السباقات والألعاب الرياضية عراة أو شبه عراة، ويتخذون ملابس واسعة يخلعونها بسهولة وفي مناسبات كثيرة، فنجح الفنانون الإغريق في الحرص على دقة تصوير أجزاء الجسم، وعنوا بإظهارها على حقيقتها؛ فلا غرابة إذا رأينا على الجدران في أطلال بومبي صور النساء والرجال يملؤها الدقة والحياة والحركة. وتغيرت الأحوال شيئاً فشيئاً في القرون الخمسة التالية، واختفت العادات الوثنية، وقلت عناية القوم بالرياضة البدنية، وذهب عن أعينهم الأجسام العارية التي تبدو فيها الصحة والجمال؛ وتوارت هذه الأجسام كلها في الملابس الفضفاضة من الحرير والمنسوجات الغالية، وقلت معرفة الفنانين بالجسم الإنساني، وصاروا يقلدون التماثيل القديمة، أو يقلدون التماثيل المأخوذة عن التماثيل القديمة. وهكذا بعد الفنان عن الأصل جيلاً بعد جيل، وأدى انقطاع الصلة بين الفنان والنموذج إلى ما وصل إليه الفن في رافنا Ravenne حين صارت التماثيل جامدة تعوزها الحركة والحياة وصدق تمثيل الطبيعة.

* * *

ويدرس تين في كتابه «فلسفة الفن» التصوير بإيطاليا في عصر النهضة، والتصوير في الأراضي المنخفضة، والنحت في بلاد الإغريق؛ ثم ختمه بفصل ممتع عن المثل الأعلى في الفن. ولكنا لا نملك أن نعرض في هذا المقام المفصل من نظريات تين في تاريخ الفن وفلسفته، فحسبنا اليوم ما أردنا الإشارة إليه.

ومهما يكن من شيء، فإن طريقة تين في دراسة تاريخ الفن [illegible] الشأن، فهي تعين على فهم الأساليب [illegible] مذاهب وتطورها واضمحلالها، [illegible] ولكن ثمة نقطة النقد، إذ لا يكون المرء مصيباً وحريصاً في أحكامه. إذ أننا نشاهد أن بعض الحالات الاجتماعية أو الأدبية أو النفسية قد يكون لها تأثير إيجابي، كما يصح أن يكون تأثيرها سلبياً. وقد يصعب علينا حينئذ أن نطبق نظريات تين ونسايره. فالمعروف مثلاً أن الإيطاليين في عصر النهضة ذاعت بينهم الاستهانة بالدين وتعاليمه، وكان فرسانهم يتقاتلون لأهون الأسباب، ويعيشون عيشة إباحية يقترفون الآثام وينغمسون في الملذات. فهل كان لهذا صداه في مدارس التصوير؟!

أجل! ولكن تأثير هذه الأحوال الاجتماعية كان تأثيراً سلبياً: إذ غلبت على تلك المدارس روح دينية سلفية ووديعة، لأن المثل الأعلى للفنانين فيها كان تصوير السكينة والهدوء اللذين كانت إيطاليا تنشدهما في ذلك الحين، فكان الخيال في هذه الحال يبتعد عن الحقيقة التي تقضي، ولكنا

مطالعات أشتات

على هامش العلوم

للدكتور أحمد زكي بك

ليس أشق على كاتب علمي من أن يكتب في العلم للجمهور، وذلك لأسباب تمس الكاتب، وأخرى تمس الجمهور. أما الكاتب فيجد جهداً كبيراً في التخلص من تفاصيل موضوعه وهي ثقيلة على القراء، ولكنها ضرورية للبحث؛ ويجد جهداً كبيراً في تخير الباب الذي يدخل منه إلى هذا الموضوع، وفي انتقاء السبل السهلة التي يجري بالقارئ فيها. ويجد جهداً في الدوران وراء المصطلحات العلمية وهي مصطلحات ثابتة يجب إبقاؤها في الدراسة في جميع الأمم. أما ما يتعلق بالجمهور فالصعوبة في أن معظمه من طبقات تختلف ثقافاتها اختلافاً يعسر الكاتب ويشق عليه. والكاتب يكتب في مواضيع … فهو يخشى أن يرتفع لمستوى … كلا الجانبين عناء الكتابة. … الثلاث مسلكاً وسطاً. وسيكون … فيها هنا وهناك، … وسيكون هو المختار لا ترتبت فيها، لتكون أقرب إلى عقل الجمهور. ومصداقاً لهذا بدأت بالكتابة في القطط لأنها في متناولنا.

١ — القطط

فصيلة القطط فصيلة كبرى من فصائل الحيوان تجمع أجناساً عدة، منها قط المنزل الأليف، وقط الغابة الوحشي، ومنها الأسد والنمر والفهود. وهي جميعاً من أحسن الحيوانات منظراً، وأجملها قامة، وأبهجها ألواناً، وأظرفها جلوداً، وهي من أعطشها للدماء.

وهي تقع من آكلات اللحوم على رأسها، وقد شكّل الله جسمها وفقاً لحاجاتها من الوثب والبطش والفتك بالفرائس، إن كبيرة كالنمر أو صغيرة كالفئران. فأجسامها مخطوطة ممدودة في غير غلو، وقوائمها متينة رشيقة في غير قصر أو طول، وعظمها جامد، وعضلها مفتول، وأوتارها مطاطة. وليس في شيء من جسمها فضل من لحم أو شحم يعطل الحركة، بل توافقت جميع أعضائها على الحركة البالغة السريعة، والوثبة الفاجئة الرشيقة تقضي بها حاجة الأحياء من رزق لا بد منه سمكاً كان أو حرباً.

وتتكون أسافل أقدامها من وسائد صغيرة مطاطة تمشي عليها، وتجري عليها، وتهبط عليها إن وثبت، فلا … يسمع لجريها أو وثبها صوت ينبه الفريسة … وتحت هذه الأقدام مخالب مقوسة مستورة ترتفع عن الأرض بفعل أربطة في أعلى القدم، وتظل هكذا مرفوعة ما دام القط هادئاً لا يبغي صيداً أو دفع أذى. فإذا هو هاج وطلب المخلب تراخت تلك الأربطة العليا فتمططت، وتقبضت أربطة أخرى في أسفل القدم فتقاصرت، فبرزت المخالب من مراقدها مستورة كالسهام تطلب اللحم لتغوص فيه!

والقطط تمشي على أصابعها فتزيد هدفاً في سرعتها،

نرى في تاريخ أكثر الأمم والشعوب أن الدين والفن يولدان سوياً، وأن الديانة كانت المحور الذي تدور حوله أخطر الجهود الفنية شأناً، فقد كان الفن عند الشعوب القديمة خادم الدين وأداته. ثم جاءت المسيحية واتخذت الفن أداة لنشر مبادئها وتقريب تعاليمها ونظرياتها إلى عقول الناس.

وهكذا نرى أن آراء تين لا تنفعنا كثيراً في مثل هذا الميدان. ويبدو أن تلك الآراء لا تحسب حساب العوامل الفردية التي يتأثر فيها فنان أو مدرسة من المدارس الفنية، كالتماثيل والطرز الفنية الأخرى، أو استعداد خاص يجعل الفنان يسبق عصره وبيئته، أو غير هذا وذاك من العوامل التي يصعب إدراك كنهها.

زكي محمد حسن

ولكن من دون أن تمس مخالبها الأرض فتثلم . ولما كانت مخالبها قوية كل القوة تمكّن عليها عند الحاجة من صيد أو نوبة بقفزة فتستحوذ على فريستها ولو كانت خفيفة سريعة .

وأسنان القطط تتفق مع الأغراض التي شكلت من أجلها ، فقواطعها حادة قاطعة ، وأضراسها الطواحن مدببة بروزها ، أما أنيابها فهي مع حدتها طويلة قوية وبها انحناء . وتلك الأسنان لا تنفع للطحن بل لتقطيع اللحوم وتمزيقها . لذلك لا يستطيع الفك أن يتحرك تلك الحركة الأفقية الدورانية الطاحنة التي يستطيعها الإنسان !

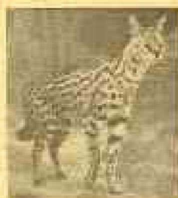
وعلى ألسنة القطط بروزات خشنة قرنيّة الملمس كقشرة الخيط التي تستخدمها لانتزاع آخر فضلات اللحم عن العظام .

أما حواسها فكذلك مصنوعة وفقا لحاجاتها [illegible] تبصر في النهار وتبصر في الليل ، وفي الليل أكثر [illegible] أو كله . أما في النهار فتضيق [illegible] منه إلا شق ضيق ، ولكنه يكون [illegible] النهار الساطع . فإذا خيم الظلام ، [illegible] إنسان العين عن مصراعيه ليدخل إلى شبكيتها كل ما هنالك من شعاعات الليل الفاترة . وبصر القطط حديد ، وكذلك سمعها ، فهذان دليلاها على مواقع الطعام الخفيّ منها ، وقطعا الليث يسمع خطوات الفأر على مسافة أمتار . كذلك شواربها كثيرة الإحساس باللمس ، وبهذه الشوارب تتحسس طريقها في الظلام الحالك فلا تصطدم بالأشياء ، فهي كالعكازة للإنسان .

أما الجلود فاقوامها متينة منقادة على أجسامها ، وهي ليست شديدة الوثوق بلحومها ، لهذا يصعب على الأسنان والمخالب عند الصراع أن تنال من لحومها مقتنصا وثيقا مكينا .

والقطط قسمان كبيران نوعان : نوع أليف يعيش بين الناس ، ونوع وحشي يعيش في البراري .

أما الوحشي فهو أصل الأليف ، وهو منتشر في القارات إلا استراليا ، ولكنه قليل حيث تكثر المدنية . ففي انجلترا مثلا لا يوجد الآن منه شيء ، والذي تخلف



قط وحشي أفريقي

هنالك يقيم في جبال اسكتلندة وغاباتها . ويوجد القط الوحشي كذلك في مصر . وقد وصفه عالم انجليزي عاش في القرن التاسع عشر [illegible] في وصف ما وجده منه في بلاده ، فقال [illegible] إن القط الوحشي أحرى به أن يسمى بالنمر [illegible] وأفتك حيوان [illegible] ، يقتل [illegible] . ويعيش من هذه الجزر في [illegible] أوكارها ، ويقضي أكثر عيشه في الشجر ، ويطلب طعامه في الليل » . والقط الوحشي أطول من الأليف ، فهو قد يبلغ بذيله ثلاث أقدام . أما لونه فالأغبر أو الأصفر ، ويجري في حاله فوق العمود الفقري خط أسود أو قاتم تتفرع منه على الجانبين خطوط من مثل لونه . أما ذيله فعليه حلقات من لون هذه الخطوط .

أما القط الأليف فأول من أنسه المصريون ، أنسوه من الوحشي الافريقي قبل الميلاد بثلاثة عشر قرنا . ثم حمله الفينيقيون إلى أوربة فشاع فيها ، ولكن خالطه الوحشي الأوربي فهجنه .

وكان المصريون القدماء يقدسون القطط ويتعهدونها ويطعمونها من [illegible] عجلا [illegible] . فإذا ماتت حنطوها ودفنوها وحزنت الأسرة لها حزنا على الفقيد منها . ومن قتل قطا كان جزاؤه القتل .

والقط الأنقرى أكثر ألوانًا من القط الوحشي ، فمنه الأبيض والأسود والأحمر والبني والأرقط . وهو أنواع شتى تختلف بحسب موطنه وتهجينه ، وبحسب أثرها في فرائه فهو يقصر ويطول ، وفي شعره فهو يقصر



قط أنقرى فارسي

كذلك ويطول . ومن الأنواع الشهيرة الفارسي والتركي والشامي والحلبي . وهو يعيش [illegible] الأهلي من اثني عشر إلى خمسة عشر عامًا

والقطة الأنقرية تحمل أولادها [illegible] وتلد من الأولاد اثنين إلى ست [illegible] فلا تفتح عيونها إلا في نحو اليوم [illegible] مرتين ، واحدة في الربيع والأخرى في آخر الصيف

والقط الأنقرى أكثر القطط الآن تألقًا وتلونًا ، ومن أكثرها انتشارًا في العالم [illegible] . وهو يألف المنازل التي يسكنها أكثر مما يألف سكانها . كان لنا في أواخر



قط أنقرى سيامي

أيامنا في المنزل قط أنقرى [illegible] . فلما حان الرحيل وخرجت الأمتعة وخلا البيت ، انتابته حالة عصبية ، فجعل يعدو ويصرخ ويموء ويعض [illegible] . فلما خرج الشارع وخرجنا [illegible] وهو يتابع خطواته . فلما أبعدنا ، وأبعد [illegible] التفت إلينا وراءه ، ثم توقف وهو [illegible] . وكثيرًا ما رجعنا الحارة [illegible] فأخبرنا بعد ذلك أن القط عاد إلى [illegible] ، وكان لا يخرج إلى حارة إلا ريثما [illegible] مظهر الوفاء [illegible] لا أكثر الناس [illegible] وهو الدلال على أسلوب القطط !

أحمد زكي

من الأدب الهندي الإسلامي

للدكتور عبد الوهاب عزام

١ – غالب

أحد شعراء الهند العظام في القرن الماضي . وهو دبير الملك نجم الدولة ميرزا أسد الله الغالب . ينسب السلجوقيون إلى أفراسياب ، ويلقب توران . وهو أحد ملوك الشاهنامة في العصر الخرافي . وجاء جده إلى دهلي ، فأقام فيها في عهد السلطان شاه عالم (المتوفى سنة ١٢٢١ هـ) ، ولبث فيها عزيزاً مكرماً ، حتى تبدلت أحوالها ، وهاجر أبوه عبد الله إلى لكهنو فالتحق بحاشية آصف الدولة ملك أوده ، ثم نبا به المحل فتنقل في أقاليم أخرى .

وولد غالب سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٦) [illegible] في حجر عمه نصر الله بك في أكبر آباد [illegible] عمه تقلبت به الغير وتداولته الأحداث [illegible] دهلي . ولم يطب له المقام بها ، فرحل إلى رام بور ، حيث رتبت له مكافأة سنوية ، ولكنه لم يصبر عن دهلي ، فرجع إليها ، وأجريت عليه وظيفة بها إلى أن توفي سنة ١٢٨٦ (١٨٦٩)

وكان غالب رضي الخلق ، حسن الفكاهة ، ودوداً لأصحابه وتلاميذه ، ولكنه كان قلقاً لا يصبر على نكد العيش . !

ولغالب مذهب في الشعر أنيق دقيق : تكثر معانيه وتعابيره واستعاراته نضجاً ، ويظهر أفكاره بالأسلوب الغريب فيه ودقة تذكر قرنه حافظ الشيرازي ، ولكنه أغمض من حافظ

وله في الفارسية ديوان وعدة مؤلفات ، بين شعر ونثر . وفي الأردية ديوان ، وبضعة مؤلفات أخرى منظومة ومنثورة .

وقد اهتم الناس بديوانه الأردي كثيراً ، فشرح ثماني مرات أو أكثر . وهو يحوي الغالي منه كثيراً من الدقائق الصوفية .

وطبع الديوان في ألمانيا طبعة مصورة جميلة ، بيعت نسختها بخمسة وثلاثين جنيهاً . ثم أعيدت هذه الطبعة الجميلة الغالية في حجم آخر فبيعت النسخة بأربعة جنيهات ونصف جنيه ، وأعيدت مرة أخرى فنزل الثمن إلى جنيهين . وله طبعات أخرى رخيصة تتناولها الأيدي .

وهذه أبيات شتى تصور بعض أفكار غالب ، نقدمها بين يدي قطع كثيرة نعرب فيها عن أفكار الشاعر إن شاء الله . وهي من ديوانه الهندستانية

فمن أبياته الصوفية التي تدل على عظم نفسه قوله إشارة إلى قصة موسى والطور :

وما كان برق الطور أولى أن [illegible]

[illegible] الأقداح أعطيت الخمر

[illegible] من الطور ، فكان أولى بمس التجلي [illegible]

ويقول ، وهو من غرائب شعره :

نحن ، حتى في عبوديتنا ، [illegible] أحرار أباة فنرجع

هذا الكعبة لم تفتح لنا [illegible] عدنا من بابها منقلبين

ومن أبياته التي يشير فيها إلى معنى متكرر عند الصوفية ، وهو أن الطور في هذا العالم على مضض ، فدون التكمل مراحل كثيرة شاقة :

أرى شرك الأمواج في كل حلقة
أفواه وحش البحر حيث ودرا
فماذا تلاقي قطرة الماء من ردى
إلى أن ترى في لجة البحر جوهرا !

كان القدماء يظنون أن قطرات الماء تنقلب دراً في أحوال معينة ، فهو يقول : إنها لا تكون دراً حتى تلاقي ما تلاقي من أهوال البحر

ثم انظر هذه الأبيات الثلاثة في معانيها المختلفة.

يقول في سرعة العمر:

أسوق سواد العمر زيناً ومثله — ركاب يزجي أوقاتك بأعلى ؟

وقد صور هذا المعنى صورة رائعة في ملحمة بيان ؟

سوى فرس يسابق الريح الله فارس مشدود ليس في يده عنان ولا في رجله ركاب ؟

ويقول:

ومن لم يمت المارقين فلا أرى — لى الشمس نجوماً ولا القمر يحضر ؟

ويقول في اللاحقة:

ويصدق في الألباب سحر بيانه — فأحسب ما قد قاله كان في لي

٢ — محمد إقبال

قد اطلع قراء العربية من قبل على شذرات من شعر فيلسوف الشرق الشاعر محمد إقبال رحمه الله. [illegible] معربة ... ما كتبوا وعربوا حين وفاته. وكل ما رجعت قراء العربية من كلامه [illegible] دواوينه الفارسية پيام مشرق، ورموز بيخودي، وأسرار خودي، وغيرها. وسأعرض على القراء نوراً من شعره الأردي. وقد أخرجها دواوين رائعة مثل بانك درا (صوت الجرس) وبال جبريل (جناح جبريل).

وإقبال نير فياض لا تحده الأقاليم التي يشغلها، فهو في الأردية والفارسية الشاعر الحر، والفيلسوف القوي، والصوفي البصير، والإنسان الرحيم.

ولا يعدنا المطلع على شعر إقبال رأى الحرية، والعمل، والاجتهاد، تتمثل في صور شتى من تفكيره، وتتجلى في حلل مختلفة من تعبيره. فإن لم تكن هذه الثلاثة دعائم فلسفة إقبال كلها فهي أقوى الدعائم في هذه الفلسفة.

وهاتي أبياتاً من ديوانيه بانك درا وبال جبريل. والأول أقدم ما نظم والثاني من أحدث ما نظم.

من بانك درا:

الحياة

إقبال يهيب بالإنسان أن يكون حراً لا تحد إرادته رهبة ولا رغبة، وأن يكون مستكملاً للقوة وسيلة، ومفتاحاً لا تصده عقبة، حتى يكاد يرفع الإنسان من العبودية إلى الألوهية. انظر كيف يقول في هذه القطعة: (1)

انطلق وياك كي تحيا بها — سر هذا الكون يا حي الحياة
هي في الحرية بحر زاخر — وغدير في حمى الرق الحياة
تحتوي في طينك سراً وترى — قوة التسخير والخلق الحياة
هي في المستقبل ترب هامد — وهي في اليقظان سيف جاهد

* * *

انطلق في الجسم روحاً دافقاً — ثم مت للحق في يوم الجهاد
[illegible] بارزة — وانطلق وياك من هذا الرماد
[illegible] تترد — وأرى ما فيك من معنى الجلاد
[illegible] وهذا الحشر — هل لدى الغافل خير ينتشر ؟

[illegible] ويرى إقبال أن الحياة [illegible] ثقة بالأمل والرجاء، وأنه على قدر قوة الأمل تقوى الحياة. وفي الأبيات الآتية تجد بعض كلامه في الأمل وفي الحرية أيضاً:

شرعة الآمال فيها جوهر — ليس في العالم منه بدل
ومقام العبد فيها نقمة — نفي الأرباب لا تستقبل
عند الحر من يجب مطلق — ليس في الحارق مشتكاً بأسر
فهنا الموت يرى قيداً له — وهناك الخلد قيد يثقل

وانظر طموحه إلى الاتصال بالله تعالى في قوله:

أنت بحر ماله من ساحل — وأنا الجدول فيه الوشل
فاحمل شطي حتى والملا — أو فدعني دون شط يفضل

عبد الوهاب عزام

---

(1) شعراء الفارسية والأردية يجيئون أن تكرر كلمة واحدة في آخر الأبيات ويسمونها رديفاً، ولكنهم يلتزمون قبلها قافية. فكلمة (الحياة) في الأبيات الثلاثة رديف، والقافية في الكلمات التي قبلها.



عشرة أيام في العراق

للأستاذ الدمرداش محمد

في الطريق بين القاهرة وبغداد :

غادرنا القاهرة في مساء يوم الخميس ٣ فبراير سنة ١٩٣٨ ، ووصلنا محطة القنطرة الغربية ... قناة السويس في « ... » الحاكم ... جوازات السفر ركبنا قطار فلسطين ، وصعدنا إلى عربة النوم ، وقبيل الفجر تحرك القطار ، وعند بزوغ الشمس مررنا بمحطة العريش ، وفي الضحى وقف القطار على محطة اللد ، وعند الظهر وصلنا حيفا ، وكان أجمل ما رأت العين في هذا الجزء من الرحلة بساتين البرتقال على الجانبين

قمنا من حيفا بعد الساعة الواحدة بقليل في ركب من السيارات فسرنا نجوب في طريق معبدة توازي البحر كطريق الكورنيش ، يحف بها على الجانب الأيمن الجبل تغطي سطحه مزارع القمح والشعير وأشجار الزيتون والبرتقال ، وبعد مسافة مررنا بمدينة عكا ، ثم ارتقينا إلى رأس الناقورة ، وهو موقع جميل على ربوة عالية في سفح الجبل تشرف على البحر ، وهو عبارة عن مركز الجمرك الفلسطيني بين سوريا وفلسطين ، ومن خلفه على مسافة قصيرة نقطة الجمرك السوري ، وبعد أن اجتزنا مدينة صيدا دعانا السائق إلى الاستراحة في قهوة خلوية على الطريق تطل على البحر يسمونها (خيزرانة) قدم لنا فيها مع القهوة ... من الخبز والسمك المقلي بزيت الزيتون ، وطعم ... مصاري (خمسة قروش مصرية) . وكان وصولنا بيروت قبيل الغروب ، فتحولنا منها إلى طريق دمشق . ولم نمض إلا قليلا حتى خيم الظلام ، وبدت قرى لبنان في سكون عجيب هاجعة على جوانب الوديان في ضوء أنوار ينبعث من مصابيح كهربائية قد علقت ، وطوقت الجو حولها هالات متماوجة تبعث شفافة حمراء وزرقاء . ثم وقفت بنا السيارة أمام ... عند قمة



(خريطة تبين خط السير من القاهرة إلى بغداد)

الطريق نحو الظهر السيد ا الزرود بالبرنو ، وظللت منها لأربع ساعات ، فواجهتني ريح شمالية باردة كانت تهب بشدة فتسمع لدويها بين الربى صوتاً كالفحيح ، فعقدت ذراعي مسرعاً وحسبي بشعور شديد فوق المعطف بطانية من صوف . ثم أخذنا سيرنا إلى (شتورة) وادي البقيع في طريق زلق شديد الانحدار ، وعند أسفله وقفت السيارة أمام قهوة على جانب الطريق تناولنا فيها قدحاً من الشاي مع فطيرة ، هي عبارة عن رغيف رقيق ملفوف على جبنة ، يقال لها (لبنة) ، واشترى بعض الرفاق كؤوساً من نبيذ أحمر يصنع في شتورة ، يعصرونه من عنب الوادي المشهور بجودة خمره من قديم الزمان .

غادرنا شتورة والجو مكفهر ، والظلام حالك ، والمطر يهطل ، وكشاف السيارة يكاد ضوؤه لا يعدو الطريق أمامها إلا بضعة أمتار ، وسائق السيارة [illegible] عن الكلام ، واشتغل في حشيشه و [illegible] وانطلق بالسيارة لا يلوي على شيء ، بين الجبال كالسهم [illegible] ويهوي إلى الوديان في سرعة البرق ، ونحن في قبضة يده ، لا حيلة لنا ولا قوة .

وصلنا دمشق في أقل من ساعة ، وقد أجهدنا البرد وطول السفر ، ونزلنا بلوكاندة بني أمية ، فوجدنا الشيخ سعادة عطا بك الأيوبي رئيس حكومة سوريا السابق في الانتظار للترحيب بنا ، ودعونا إلى العشاء معه في منزله ، ولم يجد معه ما أبديناه من أعذار ، فشيمة أهل دمشق الكرم الفياض الذي لا يقبل الاعتذار ، وانتقلنا إلى داره بحي الصالحية ، حيث استقبلنا نجله السيد [illegible] وأصدقاؤه من أسرة الجزائرلي المتكبرين باللطف والبشاشة ، ودعونا إلى قاعة الطعام وقد ازدان سقفها بنجوم من فضة على بساط من زرقة تمثل السماء ، ونقش على جدرانها صور الأزهار والأشجار والجبال وجداول الماء أوضاع متناسقة جميلة ، فبدت الحجرة في ضوء الثريات كالبستان . ثم أداروا علينا أطباق الطعام ألواناً وأشكالاً من طيبات ما اشتهرت به دمشق الفيحاء من صنوف المأكول والمشروب .

وبعد العشاء جلسنا في « الصالون » كما يجلس الأهل إلى الأهل والخلان إلى الخلان من غير كلفة ، نتجاذب أطراف الحديث في شتى النواحي ، فذكرنا مصر ونهضة أحزابها ، وفلسطين ومحنتها ، وسوريا وتقسيمها ، وذكرنا العراق والحجاز واليمن ، وقد دل القوم بأحاديثهم على علم واسع بأحوال الشرق وشئونه كله ، وبمجريات الأنباء وما تعرف عنهم من قوة أو ضعف .

وبعد نصف الليل أوينا إلى اللوكاندة ، وفي الصباح كانت الشمس مشرقة ، والسماء صافية ، وميدان (المرجة) يعج بالمارة والراكبين ، فدرت حول المرجة ، وجلست في قهوة [illegible] قريب من المحكمة أرقب القوم ، وقد [illegible] في الطرقات يتسابقون لقضاء الحاجات ، [illegible] خاص بلباس الرجال وتعدد أنواعه وألوانه ، حلة وطربوش ، أو جبة وطربوش قد لفت حوله عمامة ، أو قفطان ولفلو وعمامة ، أو قميص وسروال وحزام عريض وطربوش ، أو قفطان وكوفية وعقال ، وهكذا من شتى التراكيب . وأما النساء فقد كن أكثر اقتصاداً في الثياب ، فالدمشقية المسلمة تلبس الملاءة وتغطي وجهها « البشة » والمسيحية تلبس الفستان مع السفور .

طلبت فنجاناً من القهوة ، فأتى القهوجي بالفنجان ومعه نرجيلة ، فاعترضت فاعتذر لأنه حسبني من أهل البلاد ، والتفت حولي فإذا كل رواد القهوة يدخنون النرجيلة ، وسألته عن الثمن للاثنين فقال قرشان سوريان (٤ مليمات لا غير)

والنرجيلة (الشيشة) « كيف » شائع بين جميع الطبقات في سوريا رجالاً ونساء ، والأطفال يحيطون حقاً في

الشام والعراق إلا في الأثمان الغالية التي يباع بها في مصر ، فعلبة سجائر من أجود أصنافه تباع في العراق بسبعة قروش ، ولا تدخل بيتاً من بيوت الأعيان ببغداد إلا ويقدم لك بعد التدخين كومة كبيرة من أنواع السجاير من أصناف الدخان التركي والعراقي ، وهي على العموم أقل نكهة ومذاقاً من السجاير المصرية

وميدان مرجة كميدان العتبة الخضراء عندنا ، تحيط به دور الحكومة والبوليس والبنوك وحوانيت التجارة

في الطريق بين صيدا ودمشق : منظر الجبال والأشجار والصخور

والحلوى ، وتخترقه خطوط الترام ، وتخرج منه الشوارع الرئيسية ، وفي طرفه الشمالي أقيم عمود تذكاراً للحرية والاستقلال . ومن القهوة ترى نهر بردى منحدراً من الشرق إلى الشمال ، حتى إذا وصل إلى الميدان غاص تحته ، وعرضه أكبر كعرض الترعة الإسماعيلية أو أقل ، جريانه سريع ومذاقه عكر ، وعلى جانبيه طريقان : الغربي تحف به الجبال ، والشرقي تحف به المدارس والمستشفيات وبيوت علية القوم وبساتين أشجار الجوز والمشمش

ركبت الترام رقم ٣ قاصداً سوقاً للخضار والحبوب ، وخرج بنا إلى مكان يسمى الغوطة في ظاهر المدينة جهة الشرق ، وهي عبارة عن حقول وبساتين تمتد أطرافها إلى بادية الشام ، وتخترقها مجاري الماء الآتية من نهر بردى ، وبساتين الغوطة شهيرة قديماً بمحصولاتها من أنواع الفواكه الفاخرة ، من التين والمشمش والخوخ وأنواع النقل من اللوز والجوز والبندق ، وأنواع الحبوب من القمح والشعير ، وفلاحو الغوطة يرتدون القفطان أو « الشحري » والسروال ويلبسون الحذاء ، ويضعون فوق رؤوسهم العمامة ، ويلتحفون بالعباءة ، وأجسامهم ممتلئة ، ووجوههم مشرقة ، ويبدون في

محة وبحيرة . ولا يزالون في فلح الأرض على طريقتهم القديمة : محراث صغير وفأس خفيفة . ولا تزال الخيل مطية الكثيرين منهم يتنقلون على ظهورها بين القرى والمزارع . وقراهم صغيرة نظيفة لا ترى حولها أكوام السماد ولا المستنقعات والبرك كما هو الحال عندنا بمصر . وماشية القرية الغالبة الحصان والبقرة والماعز والأغنام .

ركبت مع الترام من دمشق إلى قرية ، وكانت تحمل في صدرها وقفا وسحرا ، وطلبا من الجالس ، وجلسا بجانبها . ثم وقفت أمام إحدى القرى ، ونسيت الحذاء ، فنبه لذلك أحد الركاب بعد قيام الترام ، وطلب من الكمساري إيقافه ، فأبى إلا في المحطة التالية ، ولما وصلنا إليها تطوع شاب لتوصيله لصاحبته ، فأثنيت على مروءته ، فقال شيخ كان جالساً أمامي في المقعد : هذا ونحن شاب صالح عول على توصيل الحذاء إليها مهما كلفه من مشقة ، والله لا يجوز أن صاحبي لي ... ونحن على أبواب العيد ، ولابد أنها ... سبحانه كريم يقبل دعاءها ... من الرجل رغبته .

وتبادلنا الحديث فذكرنا دمشق وجمال الغوطة وجودة أرضها ، ثم سألني : هل أنت من مصر ؟

قلت : نعم ، وهل زرتها ؟

قال : لا ، لم أزرها ، بل وصلت فقط إلى العريش أيام الحرب مع الجيش العثماني الذي توجه لغزو مصر ، وقد كنت وقتها جنديا . وبعد موقعة القنال (تقدمنا) إلى القدس ، ووجدنا جيش ... بعضها متحولة منها إلى دمشق حيث بقيت إلى الآن .

قلت : كيف حال المحصولات هذه السنة ؟

قال : المحصولات والحمد لله ، ولكنا نعاني انخفاض الأسعار ، بينما هؤلاء ... (يعني الفرنسيين) في الخيرات الأرزاق حتى كانت بيوتنا تخرب وأرضنا تبور ؟

قلت : هل لم يحصل تقدم في حكمكم وحماتكم ؟

قال : وحماتنا ؟! أين هم ؟! إنهم إلى الآن لا يجرءون على الكلام ، وهؤلاء الفرنسيون لا يشركون في الحكم إلا من كان على شاكلتهم ، قبح الله مسلكهم !

قلت : هل كنتم زمن الترك أحسن حالا ؟

قال : نعم وكيف ... تلك الأيام ، إنها كانت أيام رخاء وعزة ، ولا حرج ... كان ... لكنا ... هذه الأيام !

قلت : ألستم راغبين في الاستقلال ؟

قال : أين الاستقلال ؟ إن استقلالنا ضاع منذ أن وطئت أرضنا أقدام هؤلاء الصفر والسود (يعني الجنود الفرنسية والسنغالية) ، ولا ندري كيف ومتى يكون الخلاص ... ، ثم ودعني ورحل .

الزاهر راشد محمد

الكتب :

١ ـ كتاب في الحسبة

للأستاذ محمد كرد علي

الحسبة الأجر ، وهو اسم من الاحتساب أي احتساب الأجر على الله ، تقول : فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً . استخرج قانون الحسبة من روح الشرع الإسلامي ومن مختلف البيئات في البلاد الإسلامية . وكان فضلاء الناس في الصدر الأول يتولون الحسبة بأنفسهم إذا لم يكن هناك وازع أو سلطان . وإذا انتظمت أحوال الدول سمي المحتسب صاحب الأمر المحتسب ، وكان إذا كان من صف القضاة . ووظيفة المحتسب كوظيفة القاضي إلا أن أعمال المحتسب عملية ، فهو ينظر في أحوال الناس ، ويحاسبهم على أمورهم ومصالحهم ومعاملاتهم وما يتعلق بمطاعمهم ومشاربهم ومساكنهم وطرقاتهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، يتناول الاحتساب كل ذلك وينظم كل حالة من حالات المجتمع ، ليشرف على الحكام وأحكامهم ، كما يشرف على جور الأفراد بعضهم على بعض . ولنا أن نشبه الحسبة بنظام دواوين البلديات والصحة والشرطة اليوم . وقد بطلت الحسبة من البلاد الإسلامية في القرن الماضي بتأسيس المجالس البلدية على الأصول الحديثة وتأليف دواوين الصحة والشرطة على حدة

ولقد ألف العلماء أكثر من عشرين كتاباً في الحسبة ، منها ما طبع مثل كتاب « الحسبة في الإسلام » لابن تيمية ، و « المختار في كشف الأسرار » للجوبري الدمشقي ، و « الإشارة إلى محاسن التجارة » لجعفر بن علي الدمشقي ، و « آداب الحسبة » للسقطي المالقي الأندلسي ، طبعت قطعة منه وهو في حسبة بلاد الأندلس ، كما طبع كتاب في الحسبة لابن عبدون التجيبي الأندلسي في المجلة الآسيوية الفرنسية Journal Asiatique (١٩٣٤) وهو في حسبة الأندلس أو المغرب أيضاً . هذا من المطبوع

وقد كتب لي أن اطلعت على أربعة مخطوطات في الحسبة وأن وصفتها في السنة الثالثة من مجلة المقتبس الصادر في سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) وذلك في نحو ثلاثين صفحة . واسم هذه المخطوطات : (١) « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ظهر أن مؤلفه من أهل القرن الثامن وأنه كتب في مصر ، (٢) كتاب في الحسبة اسمه أيضاً « نهاية الرتبة » للشيزري ، (٣) كتاب في الحسبة لعمر بن محمد بن عوض الشامي ، (٤) « معالم القربة في أحكام الحسبة » لابن الأخوة . وهذا الكتاب الأخير هو الذي طبعته لجنة ... جب الإنجليزية بعناية الأستاذ روبن ليوى في مطبعة دار الفنون ... سنة ١٩٣٧ وترجمه إلى الإنجليزية ... ولم ... للناشر بعض أغلاط ، وتحرفت عليه بعض ألفاظ المؤلف ، كما تحرفت عليه بعض الآيات الكريمة ، وقد يثبت في المتن الرواية الضعيفة ويغفل الرواية الصحيحة ، وكان عليه أن يرجع لأحد علماء العرب في نشر كتابه ويكتب له مقدمة بالعربية ، كما يعمل أكثر علماء المشرقيات اليوم

ذكر ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة لابن الأخوة — الأخوة أو الإخوة ؟ — مؤلف كتاب معالم القربة فقال : إنه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي ضياء الدين ، ووصفه بأنه من المحدثين وأنه مات سنة ٧٢٩ ولم يتعرض لتآليفه . وقد كتب ابن الأخوة كتابه في الحسبة على سبعين باباً ، اشتمل كل باب منها على فصول تقع فيها على أسماء حرف وصناعات كثيرة ومصطلحات مدنية تستغرب معها حتى معجم الشؤون العامة في اللغة العربية

في القرنين السابع والثامن . وكتابه أوسع ما عرف من الكتب في هذا الفن المفيد . فمن الحرف حرفة « البواردين » والغالب أنهم القلاة الذين يقلون الفول المطبوخ ، كالحمص والفول ونحوهما ، ومثل « الشدارية » وهم الذين يطحنون الشدر وهو من الحبوب كالصابون إذا خُشّن بحر ، ومثل « الفاخرانيين والغضارين » وهم الذين يصنعون الزبادي (السلطانيات) من الخزف المطحون ، والغضارون باعة الكيزان . و « السلالين » صناع السلال و « الزردانيين » الذين يعملون الزردان آلات القزل ، وكانت تعمل من خشب السلم أو من النفط الأحمر

وقد تجلت روح المؤلف ومبالغته في التعصب فيما كتبه في أهل الذمة ، والقانون الذي رسمه لمعاملتهم لم يعمل به في أكثر بلاد الإسلام ، وكانوا منذ القرن الثاني وكما قال الجاحظ ، يتخذون البراذين الشهرية ، والخيل العتاق ، ويتخذون الجوقات ، ويضربون الصوالجة ، ويلبسون الملحم والطبقة ، ويتخذون الشاكرية ، ويتسمون بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي ، ويكنون بأبي الفضل ، وقد رغب إليهم كثير من المسلمين ، وتركوا عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية ، وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها ، وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم . وكانوا في القرن الثامن ، كما قال ابن الأخوة نفسه ، يعلو آدرهم على آدر المسلمين ومساجدهم ، ويتسمون بالنعوت التي كانت للخلفاء ، ويكنون بكناهم ، فمن نعوتهم الرشيد وهو أبو الخلفاء ، ويكنون بأبي الحسن وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

ويأتى النقل وهو العباس عم رسول الله ، وقد جاوزوا حد أقدارهم ، وأظهروا منهم الأيام طبائع شيطانية مكنتها وعضدتها يد سلطانية ، فركبوا من كوب المسلمين ولبسوا أحسن لباسهم ، واستخدموهم ، فرأيت اليهودي والنصراني راكباً يسوق مركبه ، والمسلم يجري في ركابه ، وربما تضرعوا وتذللوا له ليرفع عنهم ما أحدثه عليهم . قال : وأما نساؤهم إذا خرجن من دورهن ومشين في الطرقات ، فلا يكدن يعرفن ، وكذلك في الحمامات ، وربما جلست النصرانية في أعلى مكان من الحمام ، والمسلمات يجلسن دونها ، ويخرجن إلى الأسواق ، ويجلسن عند التجار ، فيكرمونهن لما يشاهدون من حسن زيهن الخ

والأصل في التضييق ، لأولي الدعوة ، على أهل الذمة نخطط خوفه من تخسيسهم ، حتى لا يكونوا عيوناً للروم على العرب ، ثم إذا رأينا أنهم قد اشترطوا لأنفسهم أموراً [illegible] ، كالكتاب الذي كتبه نصارى [illegible] إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونقله ابن الأخوة وعنوانه : كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا « إنكم لما قدمتم علينا ، وقد سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا ، على أن لا نحدث في مدائننا ولا حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد منها ما خرب ، ولا ما كان منها في خطط المسلمين في ليل أو نهار ، وأن نوسع على من مر بنا من المسلمين في الضيافة ثلاث ليال ، ولا ننزل في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركاً (أي رواية شركاً) ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا من الدخول في

الإسلام إن رأوا ذلك، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم، في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتسمى بأسمائهم، ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور ولا نسقيها أحداً، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ونجعل الزنانير على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب النواقيس في شيء من كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في شيء بحضرة المسلمين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر دعوة ولا شعانين، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نطلع على منازلهم». فلما جاء الكتاب إلى عمر زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق». فكتب إليه أن أمض ذلك وألحق فيه هذا: «ولا تشتروا شيئاً من سبايا المسلمين، وأن من ضرب مسلماً عمداً أو شتمه فقد خلع عهده».

واستفدنا من هذا الكتاب شكوى من قلة الأطباء المسلمين في عهده، وإقبال الناس على الفقه، وقد صور ذلك كما يلي: «وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة، ولا تجوز شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الطب، ولا نرى أحداً يشتغل به، ويتهافتون على علم الفقه ولا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع. فليت شعري كيف يرخص الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولي القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران، والتسلط به على الأعداء؟!». وكلامه هذا أشبه بكلام حجة الإسلام الغزالي في إحياء علوم الدين. ويرى أن السر الأعظم في تأخر المدنية عند المسلمين انصراف أكثرهم إلى علوم الدين، لا حباً بالدين، بل تقرباً إلى الملوك والأمراء، وأهملوا علوم الدنيا فتراجع أمرهم، فلا الدين خدموا، ولا الدنيا انتفعوا. حتى رأينا ابن الأخوة نفسه يقول في كتابه هذا، بأنه لا يجوز للطبيب ولا الكحال ولا للجرائحي أن يمارس صناعته إلا إذا امتحن في كتب عينها، وهي ليست للمسلمين، بل للمشركين من الروم، ثم لأهل الكتاب من النصارى. «فالطبيب يؤخذ عليه عهد أبقراط الذي أخذه على الأطباء، ويحلفهم أن لا يعطوا أحداً دواء مضراً، ولا يركبوا له سماً، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل» ويمتحن الكحالين بكتاب حنين بن إسحق (العشر المقالات في العين) (الذي طبعه في القاهرة سنة ١٩٢٨ العلامة الدكتور ماير هوف) وأوجب على المجبرين أن يعرفوا المقالة السادسة من كناش فولس في الجبر، وأن يعرفوا عدد عظام الآدمي وهي مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً وصورة كل عظم منها وشكله وقدره، حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التي كان عليها فيمتحنهم المحتسب على ذلك. ويمتحن الجرائحيين بكتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب.

لا جرم أن نشر مثل هذه الكتب يزيد اللغة العاصرة ثروة، ويقفنا على مواطن مجهولة من المجتمع الإسلامي في الأدوار المختلفة، ويهيئ مادة لتاريخ المدنية تنفع كل من يحب الاطلاع على ما جادت فيه عقول الأجداد في سالف الآباد.

مثال من كتاب ابن الأخوة عند كلامه على الحسبة على الحمامات قال: «وإن رأى (المحتسب) أحداً قد كشف عورته عزره على كشفها، لأن كشف العورة حرام، ولعن رسول الله الناظر والمنظور إليه. والنساء في هذا المقام أشد تهتكاً من الرجال، ولهن محدثات من المنكر، أفشتها كثرة الأرقاء والأتراك، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف. فقد أحدثن الآن (في القرن الثامن) من الملابس ما لا يخطر للشيطان في حساب، كلبس لباس الشهرة التي لا يستتر منها إنسان مرط، ولا إزار جلباب، ومن جملتها أنهن يتخذن قمصاناً كأمثال الأسنمة». فنستفيد من قوله كيف كان النساء يتهالكن منذ ستة قرون على الأزياء الغريبة الفاتنة، كما استفدنا من كتاب الشيخ الأقفهسي، إذ قال: «يجب أن يمنع النساء المسلمات دخول الكنائس المشهورة ... يجب أن تمنع الإفرنجيات من الدخول في الكنيسة إلا في فصل أو عيد ... يجب أن يمنع القسيسون الزواج كما في دار الشرق ولو شاؤوا قطعوا ... يجب أن لا يترك في دار القسيس امرأة عجوز ولا غيرها إن أبى الزواج ... يجب أن يجبروا على الختان كما كان يفعل بهم المتقدمون فإنهم يشعرون بزعمهم أتباع عيسى (عليه الصلاة والسلام)، وعيسى قد اختتن، ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه ويتبركون به ... يجب أن لا يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم، إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين». اهـ

(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين، مصر)

